المختار من شعر

محمود درويش



تقديم وإعداد

محمد عناني



درويش، محمود، ١٩٤١ - ٢٠٠٨.

المختار من شعر محمود درويش/ تقديم واعداد محمد عنانى ط٢. - القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨ .

١٨٠ص ؛ ٢٠ سم.

تدمك ٣ ٦٢٤ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - الشعر العربى - تاريخ - العصر التاريخ.

(أ) عنانى، محمد (مقدم ومعد)

(ب) - العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب٢٣٣٤٤/ ٢٠٠٨

I.S.B.N- 978 - 977 - 420 - 624 - 3

ديوى٩ ; ٨١١

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص.ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

WWW. egyptianbook. org. eg

E - mail : info @egyptianbook.org. eg

المختار من شعر

محمود درويش

تقديم وإعداد

محمد عناني

الطبعة الثانية



الهيئة المصرية العامة للكتاب .
٢٠٠٨

■ الكتاب : المختار من شعر محمود درويش

■ اختيارات : د. محمد عنانى

■ الطبعة الأولى : ٢٠٠١م (مكتبة الأسرة)

■ الطبعة الثانية: ٢٠٠٨م

■ طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

■ الإخراج الفنى والغلاف : أميمه على أحمد

■ خطوط: أوس السنوسى

تصدير الطبعة الثانية

هذه هى الطبعة الثانية لمختارات من شعر محمود درويش، الشاعر العربى الفلسطينى الذى رحل فى صيف هذا العام (٢٠٠٨)، وكانت الطبعة الأولى قد صدرت عام ٢٠٠١ فى مكتبة الأسرة، ونفدت فور صدورها،وكان الشاعر آنذاك لم يتجاوز الستين من عمره، والهيئة المصرية العامة للكتاب تؤمن إيمانًا عميقًا بأن التكريم الحقيقى لشاعر أو أديب قد لا يكون إلا بنشر أعماله توسيعًا لحلقة الاتصال والتذوق لأدبه أو شعره، وتعريفًا للأجيال الجديدة بما أبدعه هذا الجيل الذى أنتمى إليه.

لقد كان محمود درويش فى مطلع حياته الشعرية لسان القضية الفلسطينية الناطق، لكنه سرعان ما تعمقت تجربته الشعرية فاكتسبت أبعادًا إنسانية أكبر وأعمق، فكأنما كان ينطق بلسان كل

من يحس القهر فى كل زمان أو مكان. وقد حظى الشاعر بدراسات أكاديمية كثيرة، قورن فى بعضها بشاعر جنوب إفريقيا المناضل دنيس بروتس، وبغيره من المناضلين، وإن كنت أعتقد أن شعره لم يلق بعد الاهتمام الكافى باعتباره من شعراء الطليعة العرب الذين أسهموا فى حركة الشعر الحديث.

نرجو أن يجد القارئ فى هذه المختارات ما يمثل محمود درويش تمثيلاً كافيًا وأن يتعرف عليه من خلال الشعر من سمع عنه ولم يقرأ شعره، والله ولى التوفيق.

محمد عنانى

(١) إلى القارئ

الزنبقاتُ السودُ في قلبي

وفي شَفَتي... اللهبْ

من أي غابٍ جئتِني

يا كلَّ صلبانِ الغضبْ؟

بايعتُ أحزاني..

وصافحتُ التشردَ والسَّغَبْ

غضبٌ يدي..

غضبٌ فمي..

ودماءُ أوردتي عصيرٌ من غضبْ !

يا قارئي !

لا ترجُ منى الهمسَ !

لا ترجُ الطربْ

هذا عذابى..

ضربةٌ فى الرمل طائشةٌ

وأُخرى فى السُّحُبْ!

حسبى بأنى غاضبٌ

والنارُ أولُها غَضَبٌ !

*

(٢) ولاء

حملتُ صوتكَ فى قلبى وأوردتى
فما عليك إذا فارقتَ معركتى
أطعمتَ للريح أبياتى وزخرفها
إن لم تكن كسيوف النار.. قافيتى!
آمنت بالحرفِ.. إما ميتًا عَدَمًا
أو ناصبًا لعدّوى حبلَ مشنقةِ
آمنت بالحرف نارًا.. لا يضير إذا
كنتُ الرمادَ أنا.. أو كان طاغيتى!
فإن سقطتُ.. وكفى رافع علمى
سيكتبُ الناس فوق القبر:
«لم يَمُتِ»

*

(٣) بطاقة هوية

سَجِّلْ!

أنا عربى

ورقم بطاقتى خمسون ألفْ

وأطفالى ثمانيةٌ

وتاسِعُهم... سيأتى بعد صيفْ!

*

سجِّل!

أنا عربى

وأعمل مع رفاق الكدح فى محجَرْ -

وأطفالى ثمانيةٌ

أسلُّ لهم رغيفَ الخبزِ،

والأثوابَ والدفترْ

من الصخرِ..

ولا أتوسَّلُ الصَّدَقاتِ من بابِكْ

ولا أصغرْ

أمام بلاط أعتابك

فهل تغضبْ؟

*

سجل!

أنا عربى

أنا اسمٌ بلا لَقَبِ

صَبُورٌ فى بلادٍ كُلُّ ما فيها

يعيشُ بِفَوْرَةِ الغضبِ

جذورى..

قبل ميلاد الزمان رستْ

وقبل تفتُّحِ الحقبِ

وقبل السرو والزيتونْ

.. وقبل ترعرع العشبِ

أبى... من أُسرة المحراث

لا من سادةٍ نُجُبِ

وجدى كان فلاحًا

بلا حسبٍ.. ولا نسبِ!

يُعَلمنى شموخ الشمس قبل قراءة الكتبِ

وبيتى، كوخُ ناطورٍ

من الأعواد والقصبِ

فهل تُرضيك منزلتى؟

أنا اسمٌ بلا لقبِ!

*

سجل!

أنا عربى

ولون الشعر فحمىٌّ

ولون العين بنىٌّ

وميزاتى:

على رأسى عقالٌ فوق كوفيِّه

وكفى صلبةٌ كالصخر...

تخمشُ من يلامسها

وعنوانى:

أنا من قريةٍ عزلاء... منسيَّةْ

شوارعها بلا أسماء

وكل رجالها... فى الحقل والمحجرْ
فهل تغضب

*

سجل
أنا عربى
سلبتُ كروم أجدادى
وأرضًا كنتُ أفلحها
أنا وجميع أولادى
ولم تترك لنا.. ولكل أحفادى
سوى هذى الصخور..
فهل ستأخذُها
حكومتكم.... كما قيلا!؟
إذن!
سجل... برأس الصفحة الأولى
أنا لا أكرهُ الناسَ
ولا أسطو على أحد
ولكنى... إذا ما جعتُ
آكلُ لحم مغتصبى
حذارِ... حذارِ... من جوعى
ومن غضبى!!

*

(٤) أبى

غَضَّ طرفًا عن القمرْ

وانحنى يحضن التراب

وصلّى..

لسماء بلا مطر،

ونهانى عن السفر!

أشعل البرقُ أوديةً

كان فيها أبى

يربى الحجارا

من قديم.. ويخلق الأشجارا

جلدُهُ يتدفُ الندى

يدهُ تورقُ الشجر

فبكى الأفق أغنيهْ:

ـ كان أوديس فارسًا..

كان فى البيت أرغفهْ

ونبيذ، وأغطيه

وخيول، وأحذيهْ

وأبى قال مرة

حين صلّى عى حجرْ:

غُضَّ طرفًا عن القمر

واحذر البحر.. والسفر!

يوم كان الإله يجلد عبدَهْ

قلت: يا ناس! نكفرُ؟

فروى لى أبى.. وطأطأ زنده:

فى حوار مع العذاب

كان أيوب يشكرُ

خالق الدود.. والسحاب!

خُلق الجرحُ لى أنا

لا لِميت.. ولا صنمْ

فدع الجرع والألم
وأعِنّى على الندم!

.

مرَّ فى الأفق كوكبُ
نازلاً.. نازلاً
وكان قميصى
بين نار، وبين ريحْ
وعيونى تفكّرُ
برسوم على التراب
وأبى قال مرة:
الذى ما له وطن
ما له فى الثرى ضريح
.. ونهانى عن السفر!

*

(٥) الجرح القديم

واقفٌ تحت الشبابيك،
على الشارع واقفْ
درجات السلّم المهجور لا تعرف خطوى
لا ولا الشبّاك عارفْ
من يد النخلة أصطادُ سحابه
عندما تسقط فى حلقى ذبابه
وعلى أنقاض إنسانيتى
تعبرُ الشمسُ وأقدامُ العواصفْ
واقفٌ تحت الشبابيك العتيقه
من يدى يهرب دُورىٌّ وأزهار حديقه
اسأليني: كم من العمر مضى حتى تلاقى

كلُّ هذا اللون والموت، تلاقى بدقيقه؟
وأنا أجتازُ سردابًا من النسيان.
والفلفلِ، والصوتِ النحاسى
من يدى يهرب دورىٌّ
وفى عينى ينوب الصمت عن قول الحقيقه!

عندما تنفجر الريح بجلدى
وتكفُّ الشمسُ عن طهو النعاسْ
وأُسمّى كل شىء باسمه،
عندها أبتاع مفتاحًا وشباكًا جديدًا
بأناشيد الحماس!

- أيها القلبُ الذى يُحرم من شمس النهار
ومن الأزهار والعيد، كَفانا!
علمونا أن نصونِ الحب بالكره!
وأن نكسو ندى الورد.. غبار!
- أيها الصوتُ الذى رفرف فى لحمى
عصافير لهبْ،
علّمونا أن نُغنى، ونحب

كلَّ ما يطلعه الحقلُ من العُشب،
من النمل، وما يتركه الصيفُ على أطلال دارِ
علّمونا أن نُغنى، ونداری
حبَّنا الوحشیَّ، کی لا
یصبح الترنیم بالحب مملاًّ!
عندما تنفجر الریحُ بجلدی
سأسمی کلَّ شئ باسمه
وأدق الحزن واللیل بقیدی
یا شبابیکی القدیمه..!

*

(٦) أغنية حب على الصليب

مدينةَ كل الجروح الصغيره

ألا تخمدين يدىَّ

ألا تبعثين غزالاً إلىَّ؟

وعن جبهتى تنفضين الدخان.. وعن رئتىَّ؟!

حنينى إليك.. اغترابٌ

ولقياك.. منفى!

أدقُّ على كل باب..

أُنادى، وأسأل، كيفَ

تصير النجومُ تراب؟

أحبكِ كونى صليبى
وكونى، كما شئتِ، بُرْجَ حمامْ
إذا ذوَّبتنى يداك
ملأت الصحارى غمام

لحبك يا كلَّ حبى، مذاقُ الزبيبْ
وطعم الدمِ
على جبهتى قمر لا يغيب
ونارٌ وقيثارة فى فمى!

إذا متُّ حبًا فلا تدفنينى
وخلى ضريحى رموش الرياح
لأزرع صوتك فى كل طين
وأشهر سيفك فى كل ساح

أحبك، كونى صليبى
وما شئت كونى
كالشمس ذوبى
بقلبى.. ولا ترحمينى..

*

(٧) خارج من الأسطورة

إننى أنهضُ من قاع الأساطير
وأصطاد على كل السطوح النائمه
خطوات الأهل والأحباب.. أصطاد نجومى القاتمة
إننى أمشى على مهلى، وقلبى مثل نصف البرتقالهْ
وأنا أعجب للقلب الذى يحمل حاره
وجبالاً، كيف لا يسأم حاله!
وأنا أمشى على مهلى.. وعينى تقرأ الأسماءَ
والغيم على كل الحجاره
وعلى جيدك يا ذات العيون السود
يا سيفى المذهَّبْ
ها أنا أنهض من قاع الأساطير.. وألعبْ
مثل دورىٍّ على الأرض.. وأشرب

من سحاب عالق فى ذيل زيتون ونخلِ
ها أنا أشتمُّ أحبابى وأهلى
فيك، يا ذات العيون السود... يا ثوبى المقصَّب
لم تزل كفّاك تلّين من الخضرة، والقمح المذهَّبْ
وعلى عينيك ما زال بساطُ الصحو
بالوشم الحريرىّ.. مكوكب!

إننى أقرأ فى عينيك ميلاد النهارْ
إننى أقرأ أسرار العواصف
لم تشيخى.. لم تخونى.. لم تموتى
إنما غيَّرتِ ألوان المعاطف
عندما انهار الأحبّاءُ الكبار
وامتشقنا، لملاقاة البنادق
باقة من أغنيات وزنابق!
آه.. يا ذات العيون السود، والوجه المعفَّرْ
يشرب الشارعُ والملحُ دمى
كلما مرت على بالىَ أقمارُ الطفوله
خلف أسوارك يا سجن المواويل الطويلهْ
خلف أسوارك، ربَّيت عصافيرى
ونحلى، ونبيذى، وخميلهْ

*

(٨) اعتذار

حلمتُ بعرس الطفولهْ

بعينين واسعتين حلمت

حلمتُ بذات الجديلهْ

حلمتُ بزيتونةٍ لا تُباع

ببعض قروشٍ قليلهْ

حلمتُ بأسوار تاريخكِ المستحيلهْ

حلمتُ برائحة اللوز

تشعل حزن الليالى الطويلهْ

بأهلى حلمت..

بساعد أُختى

سيلتفُ حولى وِشاحَ بطولهْ

حلمت بليلة صيف

بسلّة تينِ

حلمتُ كثيرًا

كثيرًا حلمتُ..

إذن سامحينى!!.

(٩) المستحيل

أموت اشتياقًا

أموت احتراقًا

وشنقًا أموت

وذبحًا أموت

ولكننى لا أقول:

مضى حبنا، وانقضى

حبنا لا يموت

*

(١٠) الورد والقاموس

وليكن.

لابد لى..

لابد للشاعر من نخب جديدْ

وأناشيد جديده

إننى أحمل مفتاح الأساطير وآثار العبيد

وأنا أجتاز سردابًا من النسيان

والفلفل، والصيف القديم

وأرى التاريخ فى هيئة شيخ،

يلعب النرد ويمتصُّ النجوم

وليكن لابدَّ لى أن أرفض الموت،

وإن كانت أساطيرى تموت

إننى أبحث فى الأنقاض عن ضوء، وعن شعر جديد
آه.. هل أدركت قبل اليوم
أن الحرف فى القاموس، يا حبى، بليد
كيف تحيا كلٌّ هذى الكلمات!
كيف تنمو؟.. كيف تكبر؟
نحن ما زلنا نغذيها دموع الذكريات
واستعارات.. وسُكَّرا!
وليكن..
لابد لى أن أرفض الورد الذى
يأتى من القاموس، أو ديوان شعر
ينبت الورد على ساعد فلاّح، وفى قبضة عامل
ينبت الورد على جرح مقاتل
وعلى جبهة صخر..

*

(١١) وعود من العاصفة

وليكن..

لابدَّ لى أن أرفض الموت

وأن أحرق دمع الأغنيات الراعفهْ

وأعرّى شجر الزيتون من كل الغصون الزائفهْ

فإذا كنت أُغنى للفرحْ

خلف أجفان العيون الخائفهْ

فلأنَّ العاصفة

وعدتنى بنبيذ.. وبأنخاب جديده

وبأقواس قزح

ولأن العاصفهْ

كَنست صوت العصافير البليده

والغصون المستعاره

عن جذوع الشجرات الواقفةْ

وليكن..

لابدَّ لى أن أتباهى، بك، يا جرح المدينةْ

أنت يا لوحة برق فى ليالينا الحزينةْ

يعبس الشارع فى وجهى

فتحمينى من الظل ونظرات الضغينةْ

سأغنى للفرح

خلف أجفان العيون الخائفةْ

منذ هبت، فى بلادى، العاصفةْ

وعدتنى بنبيذ، وبأقواس قزح

*

(١٢) أغنية ساذجة عن الصليب الأحمر

هل لكل الناس، فى كل مكانٍ
أذرع تطلع خبزًا وأمانى
ونشيدًا وطنيًا؟
فلماذا يا أبى نأكل غُصُّنَ السنديانِ
ونغنى، خلسة، شعرًا شجنًا؟
ياأبى! نحن بخير وأمان
بين أحضان الصليب الأحمر!

*

عندما تُفرغ أكياسُ الطحينِ
يصبح البدرُ رغيفًا فى عيونى
فلماذا يا أبى، بعتَ زغاريدى ودينى

بفُتاتٍ وبجبنٍ أصفرِ

فى حوانيت الصليب الأحمرِ؟

*

يا أبى! هل غابة الزيتون تحمينا إذا جاء المطر؟

وهل الأشجار تغنينا عن النار، وهل ضوء القمر

سيذيب الثلج، أو يحرق أشباح الليالي

إننى أسألُ مليون سؤال

وبعينيك أرى صمتَ الحجر

فأجبنى، يا أبى، أنت أبى

أم ترانى صرت ابنًا للصليب الأحمرِ ؟!

*

يا أبى! هل تنبت الأزهارُ فى ظل الصليبْ؟

هل يغنى عندليبْ؟

فلماذا نسفوا بيتى الصغيرا

ولماذا، يا أبى، تحلم بالشمس إذا جاء المغيبْ؟

وتناديني، تناديني كثيرًا

وأنا أحلم بالحلوى وحبات الزبيبْ

فى دكاكين الصليب الأحمرِ

*

حرمونى من أراجيح النهار
عجنوا بالوحل خبزى.. ورموشى بالغبار
أخذوا منى حصانى الخشبى
جعلونى أحمل الأثقال عن ظهر أبى
جعلونى أحمل اللية عام
آه من فجّرنى فى لحظةٍ جدول نار؟
آه، من يسلبنى طبع الحمام
تحت أعلام الصليب الأحمرِ!

ملاحظة على الأغنية

أخذوا منك الحصار الخشبى
أخذوا، لا بأس، ظلَّ الكوكبِ
يا صبى!
يا زهرة البركان، يا نبض يدى
إننى أبصر فى عينيك ميلاد الغدِ
وجوادًا غاص فى لحم أبى
نحن أدرى بالشياطين التى تجعل من طفل نبيًا
قل مع القائل:... لم أسألك عبئًا هينًا
يا إلهى! أعطنى ظهرًا قويًا..!
أخذوا بابًا.. ليعطوك رياح

فتحوا جرحًا ليعطوك صباح

هدموا بيتًا لكى تبنى وطن

حَسَنٌ هذا.. حسن

نحن أدرى بالشياطين التى تجعل من طفل نبيّا

قل مع القائل:... لم أسألك عبئًا هنيًا

يا إلهى! أعطنى ظهرًا قويًا..!

(١٣) أنا آتٍ إلى ظل عينيك

أن آتٍ إلى ظلّ عينيك.. آتِ
من خيام الزمان البعيد، ومن لمعان السلاسلْ
أنتِ كل النساء اللواتي
مات أزواجهن. وكل الثواكل
أنتِ
أنتِ العيون التى فرَّ منها الصباح
حين صارت أغانى البلابل
ورقًا يابسًا فى مهبّ الرياح!

أنا آتٍ إلى ظل عينيك.. آتِ
من جلود تحاك السجاجيد منها... ومن حدقاتِ

عُلّقَت فوق جيد الأميرة عقدًا

أنتِ بيتى ومنفاى.. أنتِ

أنت أرضى التى دمَّرتنى

أنت أرضى التى حوَّلتنى سماء..

وأنتِ..

كل ما قيل عنك ارتجال وكذبهْ!

لست سمراءَ،

لست غزالاً،

ولست الندى والنبيذ

ولستِ

كوكبًا طالعًا من كتاب الأغانى القديمهْ

عندما ارتجَّ صوت المغنين... كنتِ

لغة الدم حين تصير الشوارع غابهْ

وتصير العيون زجاجًا

ويصير الحنين جريمهْ

لا تموتى على شُرُفات الكآبهْ

كُلُّ لون على شفتيك احتفالْ

يا لليالى التى انصرمت... بالنهار الذى سوف يأتى

أولَ سطر بسِفْر الجبال

الجبال التى أصبحت سُلَّمًا نحو موتى!
والسياطُ التى احترقت فوق ظهرى وظهرك
سوف تبقى سؤال:
أين سمسار كل المنابر؟
أين الذى كان.. كان يلوك حجارة قبرى وقبرك.

ما الذى يجعل الكلمات عرايا؟
ما الذى يجعل الريح شوكًا، وفحم الليالى مرايا؟
ما الذى ينزع الجلد عنى، ويثقب عظمى؟
ما الذى يجعل القلب مثل القذيفهْ؟
وضلوع المغنّين ساريةً للبيارقْ؟
ما الذى يفرش النار تحت سرير الخليفهْ؟
ما الذى يجعل الشفتين صواعق؟
أُخته.. أُمه.. حبه
لعبةٌ بين أيدى الجنود
وبين سماسرة الخُطب الحاميهْ
فيعض القيود.. ويأتى
إلى الموت.. يأتى
إلى ظلّ عينيك.. يأتى!

أنا آتٍ إلى ظلّ عينيك.. آتِ
من كتاب الكلام المحنط فوق الشفاه المعادهْ
أكلتْ فرسى، فى الطريق، جرادهْ
مزَّقتْ جبهتى، فى الطريق، سحابهْ
صلبتنى على الطريق ذبابهْ!
فاغفرى لى..
كل هذا الهوان، اغفرى لى
انتمائى إلى هامش يحترق!
واغفرى لى قرابهْ
ربطتنى بزوبعة فى كئوس الورق
واجعلينى شهيد الدفاع
عن العشب
والحب
والسخريهْ
عن غبار الشوارع أو عن غبار الشجر
عن عيون النساء، جميع النساء
وعن حركات الحجر.
واجعلينى أُحب الصليب الذى لا يُحبّ

واجعليني بريقًا صغيرًا بعينيك
حين ينام اللهب!.

أنا آتٍ إلى ظلّ عينيك.. آتٍ
مثل نسر يبيعون ريش جناحهْ
ويبيعون نار جراحهْ
بقناع. وباعوا الوطنْ
بعصا يكسرون بها كلمات المغنى.
وقالوا: اذبحوا واذبحوا..
ثم قالوا: هى الحرب كرٌّ وفرٌّ..
ثم فروا..
وفروا..
وفروا..
وتباهوا.. تباهوا..
أوسعوهم هجاء وشتمًا، وأودوا بكل الوطن!.
حين كانت يداى السياجِ، وكنتِ حديقةْ
لعبوا النرد تحت ظلال النعاسِ
حين كانت سياط جهنم تشرب جلدى
شربوا الخمر نخب انتصار الكراسى!.
حين مرت طوابير فرسانهم فى المرايا

ساومونا على بيت شعر، وقالوا:
ألهبوا الخيل. كل السبايا
أقبلتْ أقبلتْ من خيام المنافى
كذبوا! لم يكن جرحنا غير منبر
للذى باعه.. باع حطين.. باع السيوف ليبنى منبرْ
نحو مجد الكراسى!..
أنا آت إلى ظلّ عينيك.. آتٍ
من غبار الأكاذيب.. آتٍ
من قشور الأساطير آتٍ
أنت لى.. أنت حزنى وأنتِ الفرح
أنتِ جرحى وقوس قزح
أنتِ قيدى وحرّيتى
أنتِ طينى وأسطورتى
أنتِ لى.. أنت لى.. بجراحكْ
كل جرح حديقةٌ!
أنت لى.. أنت لى.. بنواحك
كل صوت حقيقهْ.
أنت شمسى التى تنطفئ
أنتِ ليلى الذى يشتعل
أنت موتى، وأنت حياتى

وسآتى إلى ظلّ عينيك.. آتِ
وردةً أزهرت فى شفاه الصواعق
قبلةً أينعت فى دخان الحرائق
فاذكرينى.. إذا ما رسمت القمر
فوق وجهى، وفوق جذوع الشجر
مثلما تذكرين المطر
وكما تذكرين الحصى والحديقةْ
واذكرينى،
كما تذكرين العناوين فى فهرس الشهداء
أنا صادقتُ أحْذية الصّبية الضعفاء
أنا قاومتُ كُل عروش القياصرة الأقوياء
لم أبع مهرتى فى مزاد الشعار المساوم
لم أذق خبز نائم
لم أُساوم
لم أدق الطبول لعرس الجماجم
وأنا ضائع فيك بين المرائى وبين الملاحم
بين شمسى وبين الدم المستباح
جئت عينيك حين تجمَّد ظلى
والأغانى اشتهت قائليها!..

*

(١٤) أحمد الزعتر

ليدين من حَجَر وزعترْ
هذا النشيدُ.. لأحمدَ المنسىِّ بين فراشتين
مَضَتِ الغيومُ وشرَّدتنى
ورمتْ معاطِفها الجبالُ وخبأتنى

.. نازلاً من نخلة الجرح القديم إلى تفاصيل
البلاد وكانت السنةُ انفصال البحر عن مدن
الرماد وكنتُ وحدى
ثم وحدى
آه يا وحدى؟ وأحمدْ
كان اغترابَ البحر بين رصاصتين

مُخيّمًا ينمو، ويُنجب زعترًا ومقاتلين

وساعدًا يشتدُّ فى النسيان

ذاكرةً تجىء من القطارات التى تمضى

وأرصفةً بلا مستقبلين وياسمين

كان اكتشافَ الذات فى العرياتِ

أو فى المشهد البحرىِّ

فى ليل الزنازين الشقيقةِ

فى العلاقات السريعة

والسؤال عن الحقيقةْ

فى كلِّ شىء كان أحمدُ يلتقى بنقيضه

عشرين عامًا كان يسألْ

عشرين عامًا كان يرحلْ

عشرين عامًا لم تلده أمُّهُ إلاّ دقائقَ فى

إناء الموز

وانسَحَبَتْ.

يريد هويةً فيصاب بالبركانِ،

سافرتِ الغيومُ وشرَّدتنى

ورَمَتْ معاطفها الجبالُ وخبَّأتنى

أنا أحمد العربيُّ ـ قالَ

أنا الرصاصُ البرتقالُ الذكرياتُ

وجدتُ نفسى قرب نفسى..

فابتعدتُ عن الندى والمشهد البحرىّ

تل الزعتر الخيمةُ

وأنا البلاد وقد أتَتْ

وتقمَّصَتنى

وأنا الذهاب المستمر إلى البلاد

وجدتُ نفسى ملء نفسى

راح أحمدُ يلتقى بضلوعه ويديه

كان الخطوةَ ـ النجمةُ

ومن المحيط إلى الخليج، من الخليج إلى المحيط

كانوا يُعدّون الرماحَ

وأحمدُ العربيُّ يصعد كى يرى حيفا

ويقفزَ.

أحمدُ الآن الرهينةُ

تركتْ شوارعَها المدينةُ

وأتت إليه

لتقتلهُ

ومن الخليج إلى المحيط، من المحيط إلى الخليج
كانوا يعُدُّون الجنازةَ
وانتخاب المقصلةْ

أنا أحمدُ العربيُّ ـ فليأتِ الحصارْ
جسدى هو الأسوار ـ فليأت الحصار
وأنا حدود النار ـ فليأت الحصار
وأنا أحاصركم
أحاصركم
وصدرى بابُ كلِّ الماس ـ فليأت الحصار

لم تأت أغنيتى لترسم أحمدَ الكحلىَّ فى الخندقْ
الذكرياتُ وراء ظهرى، وهو يوم الشمس والزنبق
يا أيها الولد الموزَّعُ بين نافذتين
لا تتبادلان رسائلى
قاومْ
إنَّ التشابه للرمال... وأنتَ للأزرقْ
وأعُدُّ أضلاعى فيهرب من يدى بردى
وتتركنى ضفاف النيل مبتعدا

وأبحثْ عن حدود أصابعى
فأرى العواصمَ كلّها زَبَدًا...
وأحمدُ يفرُكُ الساعاتِ فى الخندقْ
لم تأتِ أُغنيتى لترسم أحمد المحروق بالأزرق
هو أحمد الكَوْنىُّ فى هذا الصفيح الضيّقِ
المتمزّق الحالمْ
وهو الرصاص البرتقالىُّ.. البنفسَجَةُ الرصاصيَّةْ
وهو اندلاعُ ظهيرة حاسمْ
فى يوم حرّيَّةْ

يا أيها الولد المكرّس للندى
قاوم!
يا أيها البلد ـ المسدَّس فى دمى
قاوِمْ!
الآن أكمل فيك أُغنيتى
وأذهبُ فى حصاركْ
والآن أكمل فيك أسئلتى
وأولد من غبارك
فاذهب إلى قلبى تجد شعبى

شعوبًا فى انفجارك

... سائرًا بين التفاصيل اتكأتُ على مياهٍ
فانكسرتُ
أكلّما نَهَدَتْ سفرجلةٌ نسيتُ حدود قلبى
والتجأتُ إلى حصارٍ كى أحدّد قامتى
يا أحمد العربىُّ؟
لم يكذب علىَّ الحب. لكن كُلّما جاء المساء
امتصَّنى جَرَسٌ بعيدٌ
والتجأتُ إلى نزيفى كى أُحدّد صورتى
يا أحمد العربىُّ
لم أغسل دمى من خبز أعدائى
ولكن كُلّما مرَّت خُطَاىَ على طريقٍ
فرَّتِ الطرقُ البعيدةُ والقريبةُ
كلّما آخيتُ عاصمةً رمَتنى بالحقيبةِ
فالتجأتُ إلى رصيف الحلم والأشعار
كم أمشى إلى حُلُمى فتسبقنى الخناجرُ
آه من حلمى ومن روما!
جميلٌ أنت فى المنفى

قتيلٌ أنت فى روما

وحيفا من هنا بدأتْ

وأحمدُ سُلَّمُ الكرملْ

وبسملة الندى والزعتر البلدى والمنزلْ

لا تسرقوه من السنونو

لا تأخذوه من الندى

كتبت مراثيها العيونُ

وتركت قلبى للصدى

لا تسرقوه إلى الأبدْ

وتبعثروه على الصليب

فهو الخريطةُ والجسد

وهو اشتعال العندليب

لا تأخذوه من الحَمَامْ

لا ترسلوهْ إلى الوظيفهْ

لا ترسموا دمه وسام

فهو البنفسج فى قذيفهْ

صاعداً نحو التئام الحلم
تَتَّخذُ التفاصيلُ الرديئةُ شكلَ كُمَّثرى
وتنفصل البلادُ عن المكاتبِ
والخيولُ عن الحقائبِ
للحصى عرقٌ أقبّلُ صمتَ هذا الملح
أعطى خطبة الليمون لليمون
أوقدُ شمعتى من جرحىَ المفتوحِ للأزهار
والسمكِ المجفَّف
للحصى عَرَقٌ ومرآةٌ .
وللحطّاب قلبُ يمامةٍ
أُنساكِ أحياناً لينسانى رجالُ الأمنِ
يا امرأتى الجميلةَ تقطعين القلب والبَصَلَ
الطرىَّ وتذهبين إلى البنفسج
فاذكرينى قبل أن أنسى يدىَّ
.. وصاعداً نحو التئام الحلمِ
تكمش المقاعد تحت أشجارى وظللكِ...
يختفى المتسلّقون على جراحك كالذباب الموسمىّ
ويختفى المتفرجون على جراحك
فاذكرينى قبل أن أنسى يدىَّ!

وللفراشات اجتهادى
والصخورُ رسائلى فى الأرض
لا طروادة بيتى
ولا مسّادةٌ وقتى
وأصعد من جفاف الخبز والماء المصادَرِ
من حصان ضاع فى درب المطارِ
ومن هواء البحر أصعدُ
من شظايا أدْمَنَتْ جسدى
وأصعدُ من عيون القادمين إلى غروب السهلِ
أصعدُ من صناديق الخضارِ
وقوّةِ الأشياء أصعدُ
أنتمى لسمائى الأولى وللفقراء فى كل الأزقَّة
ينشدون:
صامدون
وصامدون
وصامدون

كان المخيَّمُ جسمَ أحمدْ
كانت دمشقُ جفونَ أحمدْ

كان الحجاز ظلال أحمدْ
صار الحصارُ مُرورَ أحمدَ فوق أفئدة الملايين
الأسيرهْ
صار الحصارُ هُجُومَ أحمدْ
والبحر طلقته الأخيرهْ!

يا خَصْرَ كلِّ الريح
يا أسبوع سُكَّرْ!
يا اسم العيون ويا رُخاميَّ الصدى
يا أحمد المولود من حجر وزعترْ
ستقول: لا
ستقول: لا
جلدى عباءةُ كلّ فلاح سيأتى من حقول التبغ
كل يلغى العواصمْ
وتقول: لا
جسدى بيان القادمين من الصناعات الخفيفةِ
والتردد. والملاحمْ
نحو اقتحام المرحلةْ
وتقول: لا

ويدى تحياتُ الزهور وقنبلةٌ

مرفوعة كالواجب اليومى ضدٌ المرحلةْ

وتقول: لا

يا أيهاِ الجسد المُضرَّج بالسفوحِ

وبالشموس المقبلةْ

وتقول: لا

يا أيها الجسد الذى يتزوج الأمواج

فوق المقصلةْ

وتقول: لا

وتقول: لا

وتقول: لا!

وتموت قرب دمى وتحيا فى الطحين

ونزور صمتك حين تطلبنا يداكَ

حين تشعلنا اليراعةْ

مشت الخيولُ على العصافير الصغيرةِ

فابتكرنا الياسمين

ليغيب وجهُ الموت عن كلماتنا

فاذهب بعيدًا فى الغمام وفى الزراعةْ

لا وقت للمنفى وأُغنيتى...:

سيجرفُنا زحامُ الموت فاذهب فى الزحام
لنُصاب بالوطن البسيط وباحتمال الياسمين

واذهبْ إلى دمك المهيَّأ لانتشارك
واذهب إلى دمىَ الموحَّدِ فى حصارِك
لا وقتَ للمنفى
وللصُوَرِ الجميلةِ فوق جدران الشوارع والجنائز
والتمنى
كتبتْ مراثيها الطيورُ وشرَّدتنى
ورمتْ معاطفها الحقولُ وجمعتنى
فاذهبْ بعيدًا فى دمى! واذهب بعيدًا فى الطحين
لنُصاب بالوطن البسيط وباحتمال الياسمين
يا أحمدُ اليومىّ!

يا اسم الباحثين عن الندى وبساطة الأسماء
يا اسم البرتقالة
يا أحمد العادىّ!
كيف مَحَوْتَ هذا الفارقَ اللفظىَّ بين الصخر والتفّاح
بين البندقية والغزالة!

لا وقت للمنفى وأغنيتى..
سنذهب فى الحصار
حتى نهايات العواصم
فاذهبْ عميقًا فى دمى
اذهبْ براعمْ
واذهبْ عميقًا فى دمى
اذهب خواتم
واذهبْ عميقًا فى دمى
اذهب سلالم
يا أحمدُ العربىُّ.. قاومْ!
لا وقت للمنفى وأغنيتى..
سنذهب فى الحصار
حتى رصيف الخبز والأمواجِ
تلك مساحتى ومساحة الوطن ـ الُملازِمْ
موتٌ أمام الحُلُم
أو حلم يموتُ على الشعار
فاذهب عميقًا فى دمى واذهب عميقًا فى الطحين
لنُصاب بالوطن البسيط وباحتمال الياسمين

... ولَهُ انحناءاتُ الخريف

لَهُ وصايا البرتقال

لَهُ القصائد فى النزيف

لَهُ تجاعيدُ الجبال

لَهُ الزفافُ

لَهُ المجلاّت الملوَّنةُ

المرائى المطمئنةُ

ملصقات الحائط

العَلَمُ

التقدُّمُ

فرقةُ الإنشاد

مرسوم الحداد

وكل شىء كل شىء كل شىء

حين يعلن وجهه للذاهبين إلى ملامح وجههِ

يا أحمدُ المجهولُ!

كيف سكَنتَنَا عشرين عامًا واختفيتَ

وظَلَّ وجهُكَ غامضًا مثل الظهيرةْ

يا أحمد السرىّ مثل النار والغابات

أشهرْ وجهك الشعبىَّ فينا

واقرأ وصيَّتكَ الأخيرهْ؟

يا أيها المتفرّجون! تناثروا فى الصمت

وابتعدوا قليلاً عنه كى تجدوهُ فيكم

حنطةً ويدين عاريتين

وابتعدوا قليلاً عنه كى يتلو وصيَّتَهُ

على الموتى إذا ماتوا

وكى يرمى ملامحَهُ

على الأحياء إن عاشوا!!

أخى أحمد!

وأنتَ العبدُ المعبود والمعبد

متى تشهدْ

متى تشهدْ

متى تشهدْ؟

(١٥) قصيدة الأرض

- ١ -

فى شهر آذارَ، فى سَنَةِ الانتفاضةِ، قالت لنا الأرض
أسرارَها الدمويَّةَ. فى شهر آذارَ مَرَّتْ أمام
البنفسج والبندقية خمسُ بناتٍ. وقَفْنَ على باب
مدرسة ابتدائيَّةٍ، واشتعلن مع الورد والزعترِ
البلدىِّ. افتتحنَ نشيدَ التراب. دخلن العناقَ
النهائىَّ - آذارُ يأتى إلى الأرض من باطن الأرض
يأتى، ومن رقصة الفتياتِ - البنفسجُ مال قليلاً
ليعبر صوتُ البنات. العصافيرُ مَدَّتْ مناقيرها
فى اتجاه النشيد وقلبى.

أنا الأرضُ
والأرضُ أنتِ

خديجةُ! لا تغلقى الباب
لا تدخلى فى الغياب
سنطردهم من إناء الزهور وحبل الغسيل
سنطردهم عن حجارة هذا الطريق الطويل
سنطردهم من هواء الجليل.
وفى شهر آذار، مَرَّتْ أمام البنفسج والبندقية خمسُ
بنات. سقطن على باب مدرسة ابتدائيَّة. للطباشير
فوق الأصابع لونُ العصافير. فى شهر آذار قالت
لنا الأرض أسرارها.

- ١ -

أُسمّى التراب امتدادًا لروحى
أُسمّى يدىَّ رصيفَ الجروحِ
أُسمّى الحصى أجنحةْ
أُسمّى العصافير لوزًا وتين
أُسمّى ضلوعى شجرْ
وأستلُّ من تينة الصدر غصنًا
وأقذفه كالحجرْ
وأنسف دبّابة الفاتحين

- ٢ -

وفى شهر آذار، قبل ثلاثين عامًا وخمس حروب،
ولُدتُ على كومة من حشيش القبور المضىء.

أبى كان فى قبضة الإنجليز. وأُمّى تربّى جديلتها
وامتدادى على العشبِ. كنتُ أُحبُّ «جراح
الحبيب»وأجمعها فى جيوبى فتذبل عند الظهيرة،
مَرَّ الرصاصُ على قمرى الليلكىِّ فلم ينكسرْ
غير أن الزمان يَمرُّ على قَمَرى الليلكىِّ فيسقط فى
القلب سهواً...
وفى شهر آذارَ نمتدُّ فى الأرضِ
فى شهر آذار تنتشر الأرض فينا
مواعيدَ غامضةً
واحتفالاً بسيطًا
ونكتشف البحرَ تحت النوافذِ
والقمرَ الليلكىَّ على السرو
فى شهر آذار ندخل أول سجن وندخل أول حُبٍّ،
وتنهمرُ الذكرياتُ على قرية فى السياج
وُلدنا هناك ولم نتجاوز ظلال السفرجلِ
كيف تفرّين من سنُبلى يا ظلال السفرْجل؟
فى شهر آذار ندخل أول حُبّ
وندخل أول سجن
وتنبلج الذكرياتُ عشاء من اللغة العربية

قال لىَ الحبُّ يومًا: دخلتُ إلى الحلم وحدى فضعتُ
وضاعَ بىَ الحلمُ قلتُ: تكاثر! تَرَ النهر يمشى
إليك.

وفى شهر آذار تكتشف الأرض أنهارها

ـ ٤ ـ

بلادى البعيدةَ عنى... كقلبى !
بلادى القريبةَ منى... كسجنى !
لماذا أُغنّى
مكانًا، ووجهى مكانٌ؟
لماذا أُغنى
لطفلٍ ينامُ على الزعفران
وفى طرفِ النوم خنجر
وأُمّى تناولنى
صدرها
وتموتُ أمامى
بنسمة عنبر؟

ـ ٥ ـ

وفى شهر آذار تستيقظ الخيلُ
سيدتى الأرضَ!

أيٌّ نشيد سيمشى على بطنكِ المتموّج، بعدى؟
وأىٌّ نشيد يلائمُ هذا الندى والبَخُورَ
كأنَّ الهياكل تستفسر الآن عن أنبياء فلسطينَ فى بدئها
المتواصل
هذا اخضرارُ المدى واحمرارُ الحجارةِ ـ
هذا نشيدى
وهذا خروجُ المسيح من الجرح والريح
أخضرَ مثل النبات يُغطّى مساميرَهُ وقيودى
وهذا نشيدى
وهذا صعود الفتى العربىّ إلى الحلم والقدس...

فى شهر آذار تستيقظ الخيلُ.
سيدتى الأرضَ !
والقممُ اللولبيَّةُ تبسطها الخيلُ سجّادةً للصلاة السريعة
بين الرماح وبين دمى
نصفَ دائرة ترجع الخيلُ قوسًا
ويلمع وجهى ووجهك حيفا وعُرسا

وفى شهر آذار ينخفض البحرُ عن أرضنا المستطيلة مثل

حصان على وترِ الجنسِ.

فى شهر آذار ينتفض الجنسُ فى شجر الساحل العربىّ.

وللموج أن يحبس الموجَ.. أن يتموَّجَ... أن

يتزوَّج... أو يتضرَّج بالقطن

أرجوك - سيدتى الأرضَ - أن تَسكنينى وأن تُسكنينى

صهيلَكِ

أرجوك أن تدفنينى مع الفتيات الصغيرات بين البنفسج

والبندقيةِ

أرجوك - سيدتى الأرضَ - أن تُخْصبى عُمْرِىَ المتمايلَ

بين سؤالين : كيف؟ وأين ؟

وهذا ربيعى الطليعىُّ.

هذا ربيعى النهائىُّ

فى شهر آذار زوَّجت الأرض أشجارها.

- ٦ -

كأنى أعودُ إلى ما مضى

كأنى أسيرُ أمامى

وبين البلاط وبين الرضا

أُعيد انسجامى

أنا ولدُ الكلمات البسيطةْ

وشهيدُ الخريطةْ
أنا زهرة المشمش العائليَّةْ.
فيا أيها القابضون على طرف المستحيل
من البدء حتى الجليل
أعيدوا إلىَّ يدىَّ
أعيدوا إلىَّ الهويَّةْ !

- ٤ -

وفى شهر آذار تأتى الظلال حريريةً والغزاةُ بدون ظلالٍ
وتأتى العصافيرُ غامضةً كاعتراف البنات
وواضحةً كالحقول
العصافيرُ ظلُّ الحقول على القلب والكلمات.
خديجةُ !
- أين حفيداتك الذاهبات إلى حبّهن الجديد؟
- ذهبن ليقطفن بعض الحجارة -
قالت خديجةُ وهى تحثُّ الندى خلفهّن
وفى شهر آذار يمشى التراب دمًا طازجًا فى الظهيرة...
خمسُ بنات يخبّئنَ حقلاً من القمح تحت الضفيرة...

يقرأن مطلع أُنشودة عن دَوالى الخليل.

ويكتبن خمس رسائل :

تحيا بلادى

من الصفّرِ حتى الجليل

ويحلمن بالقدس بعد امتحان الربيع وطرد الغزاة.

خديجةُ! لا تغلقى الباب خلفك

لا تذهبى فى السحاب

ستمطر هذا النهار

ستمطر هذا النهار رصاصًا

وفى شهر آذار، فى سنةِ الانتفاضة، قالت لنا الأرض

أسرارها الدمويَّةَ: خمسُ بنات على باب مدرسة

ابتدائيَّةٍ يقتحمن جنود المظلات. يسطع بيت

من الشعر أخضرَ.. أخضرَ.. خمسُ بنات على

باب مدرسة ابتدائية ينكسرن مرايا مرايا

البنات مرايا البلاد على القلبِ...

فى شهر آذار أحرقت الأرضُ أزهارها.

أنا شاهدُ المذبحةْ

وشهيدُ الخريطةْ

أنا ولدُ الكلمات البسيطةْ

رأيتُ الحصى أجنحةْ

رأيتُ الندى أسلحه

عندما أغلقوا باب قلبى عليّا
وأقاموا الحواجز فيّا
ومنع التجوُّل
صار قلبى حارهْ
وضلوعى حجارهْ
وأطلَّ القرنفل
وأطلَّ القرنفل

- ٥ -

وفى شهر آذار رائحةُ للنباتات. هذا زواجُ العناصرِ.
«آذار أقسى الشهور» وأكثرُها شبَقًا. أىُّ
سيفٍ سيعبر بين شهيقى وبين زفيرى ولا يتكسَّرُ!
هذا عناقى الزراعىُّ فى ذروة الحبّ. هذا انطلاقى
إلى العمر.
فاشتبكى يا نباتاتُ واشتركى فى انتفاضة جسمى، وعودة
حلمى إلى جسدى.
سوف تنفجر الأرض حين أُحقّقُ هذا الصراخ المكبَّلَ
بالرىّ والخجل القروىّ.
وفى شهر آذار نأتى إلى هوَس الذكريات، وتنمو علينا
النباتاتُ صاعدةً فى اتجاهات كلِّ البدايات. هذا

نموٌّ التداعى. أُسمّى صعودى إلى الزنزلخت التداعى.
رأيتُ فتاةً على شاطئ البحر قبل ثلاثين عامًا
وقلت: أنا الموجُ، فابتعدتْ فى التداعى. رأيتُ
شهيدين يستمعانِ إلى البحر: عكا تجىء مع الموج.
عكا تروح مع الموجِ. وابتعدا فى التداعى.
ومالت خديجةُ نحو الندى، فاحترقتُ، خديجةُ! لا
تغلقى الباب!
إنَّ الشعوب ستدخل هذا الكتاب وتأفل شمس أريحا
بدون طقس.
فيا وَطَنَ الأنبياء.. تكَاملْ!
ويا وطن الزراعين... تكامل
ويا وطن الشهداء... تكامل
ويا وطن الضائعين... تكامل
فكلُّ شِعاب الجبال امتدادٌ لهذا النشيد،
وكلُّ الأناشيد فيك امتداد لزيتونةٍ زمَّلتنى.

- ٦ -

مساء صغير على قرية مُهملةْ
وعينان نائمتانْ
أعود ثلاثين عامًا

وخمسَ حروب
وأشهد أن الزمانْ
يخبّئُ لي سُنبلهْ
يغنّي المغنّي
عن النار والغرباء
وكان المساء مساء
وكان المغنّي يُغنّي

ويستجوبونه:
لماذا تغنّي؟
يردُّ عليهم:
لأنّي أُغَنّي

وقد فتَّشوا صدرَهُ
فلم يجدوا غير قلبهْ
وقد فتشوا قلبَهُ
فلم يجدوا غير شعبهْ

وقد فتَّشوا صوتَهُ

فلم يجدوا غير حزنهُ
وقد فتَّشوا حزنَهُ
فلم يجدوا غير سجنّه
وقد فتَّشوا سجنَهُ
فلم يجدوا غير أنفسهم فى القيود

وراء التلال ينام المغنّى وحيدًا
وفى شهر آذار
تصعد منه الظلال

ـ ٧ ـ

أنا الأملُ السهلُ والرحبُ ـ قالت لىَ الأرضُ. والعشبُ
مثل التحيَّةِ فى الفجر
هذا احتمال الذهاب إلى العمر خلف خديجةَ. لم يزرعونى
لكى يحصدونى
يريد الهواء الجليلىُّ أن يتكلّم عنى، فينعس عند خديجة
يريد الغزال الجليلىُّ أن يهدم اليوم سجنى، فيحرس ظل
خديجةَ وهى تميلُ على نارها
يا خديجةُ! إنى رأيتُ... وصدَّقت رؤياىَ. تأخذنى
فى مداها وتأخذنى فى هواها. أنا العاشقُ الأبدىُّ،
السجين البديهىُّ. يقتبسُ البرتقال اخضراوى ويصبح
هاجسَ يافا

أنا الأرض منذ عرفتُ خديجةَ

لم يعرفونى لكلى يقتلونى

بوسع النبات الجليلىّ أن يترعرعَ بين أصابع كفى ويرسم

هذا المكان الموزَّعَ بين اجتهادى وحبّ خديجةَ

هذا احتمال الذهاب الجديد إلى العمر من شهر آذار حتى

رحيل الهواءِ عن الأرضِ

هذا التراب ترابى

وهذا السحاب سحابى

وهذا جبينَ خديجةَ

أنا العاشق الأبدىُّ ـ السجين البديهىُّ

رائحةُ الأرض تُوقظنى فى الصباح المبكِّر...

قيدى الحديدىُّ يوقظها فى المساء المبكر

هذا احتمال الذهاب الجديد إلى العمر،

لا يسأل الذاهبون إلى العمر عن عمرهم

يسألون عن الأرض: هل نَهَضَتْ

طفلتى الأرضَ!

هل عرفوكِ لكى يذبحوكِ؟

وهل قيَّدوكِ بأحلامنا فانحدرتِ إلى جرحنا فى الشتاء؟

وهل عرفوكِ لكى يذبحوكِ؟

وهل قيَّدوكِ بأحلامهم فارتفعتِ إلي حلمنا فى الربيعٌ؟
أنا الأرضُ...
يا أيها الذاهبونِ إلي حبة القمح في مهدها
احرثوا جَسَدي!
أيها الذاهبونِ إلي جبلِ النارِ
مرُّوا علي جسدي
أيها الذاهبون إلي صخرةِ القدسِ
مرّوا علي جسدي
أيها العابرون علي جسدي
لن تمروا
أنا الأرض في جَسَدٍ
لن تمروا
أنا الأرض في صحوها
لن تمروا
أنا الأرض. يا أيها العابرون علي الأرض في صحوها
لن تمروا
لن تمروا
لن تمروا!

*

(١٦) عزف منفرد

لو عُدْتُ يومًا إلى ما كان، هلْ أجدُ
الشيءَ الذي كانَ والشيءَ الذي سيكونْ؟
العزفُ منفردٌ
والعزفُ منفردُ

*

من ألفِ أغنيةٍ حاولْتُ أن أُولَدْ
بين الرمادِ وبين البحرِ. لم أجِدِ
الأمَّ التي كانتِ الأمَّ التي تَلِدُ
البحرِ يبتعدُ
والعزفُ منفردُ

*

صدَّقتْ روحيَ لَّما قالتِ التصقِ

بالحائط الساقطِ، استسلمتُ للشَبَقِ
ولو كتبتُ على الصفصاف نوعَ دمى
لجاءتِ الريحُ عكسَ الريح فى وَرَقِ
الصفصافِ، والصفصافُ يَتَّقدُ
والعزفُ منفردُ

*

لو عُدْتُ يومًا إلى ما كان لن أجدا
غيرَ الذى لم أجدْهُ عندما كُنْتُ
يا ليتنى شَجَرٌ كى أستعيد مدى
الراوى. وأُسندَ أُفقى حيثما مِلتُ
وليتنى شَجَرٌ لا يستطيل سُدى..
صَدَّقتُ حُلْمِىَ؟ لا. صَدَّقْتُ ما يَرِدُ
والعزفُ منفردُ

*

بَحْرٌ أمامىَ، والجدرانُ ترجمنى
دعْ عنكَ نفسكَ واسلمْ أيها الولَدُ
البحر أصغرُ منِّى كيف يحملنى؟
والبحر أكبر منى كيف أحملهُ؟
ضاقتْ بىّ اللغةُ، استسلمتُ للسُّفُنِ

وغصٌ بالقلبِ حين امتصَّهُ الزَّبَدُ
بحرٌ علىَّ.. وفىَّ الأبيضُ ـ الأبَدُ.
والعزفُ منفردُ

*

بَعْدَ البعيد بعيدٌ كُلَّما ابتعدا
صارَ البعيدُ قريبًا من خطوط يدىْ
أُجسُّهُ وأراهُ واحدًا أحدا
على هواءٍ لَهُ إيقاعُ أغنيتى
سماؤنا فوقنا واستجمعت بَدَدا؟
لو عدت يومًا إلى ما كان من بلدِ
الزيتون، صحْتُ: تباطأْ أيها البَلَدُ
والعزفُ منفردُ

*

لو عُدْتُ يومًا إلى ما كان، لن أجدا
الحُبَّ الذى كان والحبَّ الذى سيكونْ
من ألفِ زنبقة حاولتُ أن أَعدا
القلبَ القديمَ بقلبٍ توأمٍ، وجنون
حبيبتى! يا امتثالَ الروحِ للجسدِ
ويا نهايةَ ما لا ينتهى أبدا

قطعتِ شريان مَوْجى يا ابنةَ الزَبَدِ
قطعتَ صوتيَ عن تاريخ أغنيتى.
وددتُ لو أجد الإيقاع، لو أجدُ.
والعزفُ منفردُ

*

قلتُ: الوداع لما يأتي ولا يصلُ
ورحتُ أبحثُ عمَّا غابَ مِن قمري.
دعْ عنكَ موتكَ، وارحلِ أيها الرجلُ
وارحلِ وهاجرْ وسافرْ داخلَ السَفَرِ
ليس المكانِ مكانًا حين تفقدُهُ،
ليس المكانِ مكانًا حينَ تنشُدُهُ.
وكُلَّما حطَّ دُوريٌّ على حَجَرٍ
بحثتَ للقلب عن حوَّاءَ تُرْشِدُهُ
وكلما مالَ غُصنٌ صحتُ: كم عَدَدُ
الهجراتِ؟ كم عَدَدُ الأمواتِ يا عَدَدُ
والعزفُ منفردُ

*

.. وعابر في بلادى لاناس، لا ذكرى
تركتُ فيها ولا ذكرى حملتُ لها

كأنني لم أكن فيها ولم أرها
خرجتُ أدخل أسمائي، فبعثرها
النسيانُ، وانقسمتْ نفسي لتشهرها،
أمُرُّ بالشيء كاللاشيء.. لا أجدُ
الشيء الذي يُوجَدْ
من ألف أغنية حاولتُ أن أُولدْ
لو عدتُ يومًا إلى نفسي فهلْ أجدُ
النفسَ التي كانت النفسَ التي كانت؟
ياليتني وَلَدٌ، يا ليتني وَلَدُ،
والعزفُ منفردُ

*

(١٧) آن للشاعر أن يقتل نفسه

آن للشاعر أن يقتل نفسَهْ
لا لشيء، بل لكي يقتل نَفْسَهْ

*

قال: لن أسمح للنحلة أن تمتصّنى
قال: لن أسمح للفكرة أن تَقْتَصّ منّى.
قال: لن أسمح للمرأة أن تتركنى حيًا على ركبتها.

*

من ثلاثين سَنَهْ
يكتب الشعر وينسانى. وقعنا عن جميع الأحصنهْ
ووجدنا الملح فى حبهِ قمحٍ، وهو ينسانى. خسرنا الأمكنهْ
وهو ينسانى. أنا الآخر فيه.

*

كُلُّ شىء صورةٌ فيه. أنا مرآتُهُ
كُلُّ موت صورةٌ. كُلُّ جَسَدْ
صورةٌ. كُلُّ رحيل صورة. كُلُّ بَلَدْ
صورةٌ. قلتُ كفى متنا تمامًا، أين إِنسانيتى؟ أين أنا؟
قال: لا صورة إلاَّ للصور.

*

من ثلاثين شتاءْ
يكتب الشعر ويبنى عالمًا ينهار حولهْ
يجمَع الأشلاء كى يرسم عصفورًا وبابًا للفضاءْ
كُلَّما انهار جدارٌ حولنا شاد بيوتًا فى اللغهْ
كلما ضاق بنا البرُّ بنى الجنة، وامتدَّ بجُملهْ
من ثلاثين شتاء، وهو يحيا خارجى.

*

قال: إنْ جئنا إلى أُولى المُدُنْ
ووجدناها غيابًا
وخرابًا
لا تُصدِّقْ
لا تُطَلِّقْ
شارعًا سرنا عليه.. وإليه.
تكذب الأرضُ ولا يكذب حُلْمٌ يتدلى من يديهِ.

*

منْ ثلاثين خريفًا

يكتب الشعر ولا يحيا ولاَ يعشق إلاَّ صَنوْرَةَ

يدخل السجنَ فلا يُبصر إلاَّ قمرهْ

يدخلُ الحبَّ فلا يَقطِفُ إلاَّ ثمرهْ

قلتُ: ما المرأةُ فينا؟ قال لى: تُفَّاحةٌ للمغفرةْ

أين إنسانيَّتى؟ صحتُ

فسدَّ الباب كى يبصرنى خارجَهُ. يصرخ بى:

من فكرةٍ فى صورةٍ فى سُلَّم الإيقاع تأتى المرأةُ المنتظرهْ.

*

آن للشاعر أن يخرج منى للأبد.

ليس قلبى من ورقْ

آن لى أن أفترقْ

عن مراياىَ وعن شعب الورقْ

آن للنحلة أن تخرج من وردتها نحو الشفقْ

آن للوردة أن تخرج من شوكتها كى تحترقْ

آن للشوكه أن تدخل قلبى كُلَّهُ

كى أرى قلبى، وكى أسمع قلبى، وأحسَّهْ.

آن للشاعر أن يقتل نفسهْ،

لا لشىء،

بل لكى يقتل نفسهْ.

(١٨) رأيت الوداع الأخير

رَأَيْتُ الوَدَاعَ الأَخيرَ: سَأُودعُ قَافيَةً منْ خَشَبْ
سَأُرْفَعُ فَوْقَ أَكُفّ الرِّجَال، سَأُرْفَعُ فَوْقَ عُيُونِ النّسَاءْ
سَأُرزَمُ فى عَلَمٍ، ثُمَّ يُحْفَظُ صَوتِىَ فى علَبِ الأَشْرِطَهْ
سَتُغْفَرُ كُلُّ خَطَايَاىَ فى سَاعَة، ثُمَّ يَشْتُمنى الشُّعَرَاء.
سَيَذْكُرُ أَكْثَرُ منْ قَارِئٍ أَنَّنى كُنْتُ أَسْهَرُ فى بيْته كُلَّ لَيْلَهْ.
سَتَأتى فَتَاةٌ وتَزْعُمُ أَنّى تَزوَّجْتُهَا مُنْذُ عشْرِينَ عَامًا.. وأكثر.
سَتُرْوَى أَسَاطِيرُ عَنّى، وَعَنْ صَدَفٍ كُنْتُ أَجْمَعُهُ منْ بِحَارٍ بَعيدَهْ.
سَتَبْحَثُ صَاحِبَتى عَنْ عَشِيقٍ جَدِيدٍ تُخَبِّئُهُ فى ثِيَابِ الحدَادْ.
سَأُبْصِرُ خَطَّ الجنَازَه، وَالمَارَّة المُتْعبِينَ منَ الانْتظَارْ.

وَلَكنَّنى لاَ أَرَى القَبْرَ بَعْدُ. أَلاَ قَبْرَ لى بَعْدَ هَذَا التَّعَبْ؟

(١٩) وداعًا لما سوف يأتى

وَدَاعًا لِمَا سَوْفَ يَأتِى بِهِ الوَقْتُ بَعْدَ قَلِيلٍ.. وَدَاعًا.
وَدَاعًا لِمَا سَوْفَ تَأتِى بِهِ الأمْكنَهْ..
تَشَابَهَ فى اللَّيْلِ لَيْلِى، وَفِى الرَّمْلِ رَمْلِى، وَمَا عَادَ قَلْبِى مَشَاعَا.
وَدَاعًا لِمَنْ سَأرَاهَا بِلادًا لِنَفْسِى؛ لِمَنْ سَأرَاهَا ضياعَا.
سَأعْرِفُ كَيْفَ سَأحْلُمُ بَعْدَ قَلِيلٍ، وكَيْفَ سَأحْلُمُ بَعْدَ سَنَهْ،
وَأعْرِفُ مَا سَوْفَ يَحْدُثُ فى رَقْصَةِ السَّيْفِ وَالسَّوْسَنَهْ،
وكَيْفَ سَيَخْلَعُ عَنِّى القِنَاعُ القِنَاعَا.
أأسْرِقُ عُمْرِى لأحْيَا دَقَائِقَ أُخْرَى؛ دَقَائِقَ بَيْنَ السَّرادِيبِ وَالمِئْذَنَهْ
لأشْهَدَ طَقْسَ القِيامَةِ فى حَفْلَةِ الكَهَنَهْ،
لأعْرِفَ مَاكُنتُ أعْرِفُهُ؟ إنِّى رَأيْتُ.. رَأيْتُ الوَدَاعَا.

(٢٠) بقاياك للصقر

بَقَايَاكَ لِلصَّقْرِ. مَنْ أَنْتَ كَيْ تَحْفِرَ الصَّخْرَ وَحدَكْ،
وَتَعْبُر هَذَا الفَرَاغَ النّهَائِيَّ، هَذَا البَيَاضَ النّهَائِيَّ؟ مَرْحَى!
سَتَصْطَفُّ حَوْلَكَ خَرُّوبَتَانِ، وَأَرْمَلَتَانِ، وَصَمْتُ الفَضَاءِ المُجَوَّفِ بَعْدَكْ
شُهُودًا عَلَى العَبَثِ البَشَرِيِ؛ شُهُودًا عَلَى المُعْجِزَهْ.
أَفِي مِثْلِ هَذَا الزَّمَانِ تُصَدِّقُ ظِلَّكَ، فِي مِثْلِ هَذَا الزَّمَانِ تُصَدِّقُ وَرْدَكْ؟
وَتَلْفظُ اسْمَكَ واسْمَ بِلاَدِكَ واسْمِي مَعًا
بِلاَ خَطَإٍ، يَا رَفِيقِي، كَأَنَّكَ تَمْلكُ شَيْئًا، كَأَنَّكَ تَمْلكُ وَعْدكْ!
سَنُخْلِي لَكَ المَسْرَحَ الدَّائِرِيَّ. تَقَدَّمْ إِلَى الصَّقْرِ وَحْدَكْ،
فَلاَ أَرْضَ فِيكَ لِكَيْ تَتَلاَشَى،
وَلِلصَّقْرِ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْكَ، وَلِلصَّقْرِ أَنْ يَتَقَمَّصَ جِلْدَكْ.

(٢١) أنا يوسف يا أبى

أَنَا يُوسُفٌ يَا أَبِى. يَا أَبِى، إِخْوَتِى لاَ يُحِبُّونَنِى، لاَ يُرِيدُونَنِى بَيْنَهُم يَا أَبِى. يَعْتَدُونَ عَلَىَّ وَيَرْمُونَنِى بِالحَصَى وَالكَلاَمِ. يُرِيدُونَنِى أَنْ أَمُوتَ لِكَىْ يَمْدَحُونِى. وَهُمْ أَوْصَدُوا بَابَ بَيْتِكَ دُونِى. وَهُمْ طَرَدُونِى مِنَ الحَقْلِ. هُمْ سَمَّمُوا عِنَبِى يَا أَبِى. وَهُمْ حَطَّمُوا لُعبِى يَا أَبِى. حِينَ مَرَّ النَّسِيمُ وَلاَعَبَ شَعْرِىَ غَارُوا وَثَارُوا عَلَىَّ وَثَارُوا عَلَيْكَ، فَمَاذَا صَنَعْتُ لَهُمْ يَا أَبِى؟ الفَرَاشَاتُ حَطَّتْ عَلَى كَتِفَىَّ، وَمَالَتْ عَلَىَّ السَّنَابِلُ، وَالطَّيْرُ حَطَّتْ على راحتىَّ. فَمَاذَا فَعَلْتُ أَنَا يَا أَبى، وَلِمَاذَا أَنَا؟ أَنْتَ سَمَّيْتَنِى يُوسُفًا، وهَمُو أَوْقَعُونِىَ فِى الجُبِّ، وَاتَّهمُوا الذِّئْبَ؛ وَالذِّئْبُ أَرْحَمُ مِنْ إِخْوَتِى.. أبتِ! هَلْ جَنَيْتُ عَلَى أَحَدٍ عِنْدَمَا قُلْتُ إِنِّى: رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا، والشَّمْسَ والقَمَرَ، رَأَيْتُهُم لِى سَاجِدِينْ.

(٢٢) أريد مزيدًا من العمر

أُرِيدُ مزِيدًا مِنَ العُمْرِ كَىْ نلْتقِى، ومزَيدًا مِنَ الاغتْرَابْ
وَلَوْ كَانَ قَلْبى خفَيفًا لأطْلَقْتُ قَلْبِى علَى كُلّ نَحلَةْ.

أُرِيدُ مزِيدًا مِنَ القَلْبِ كَىْ أَسْتَطِيعَ الوُصُولَ إِلَى سَاقِ نَخْلَةْ.
وَلَوْ كَانَ عُمْرِى مَعِى لانْتَظَرْتُكِ خَلْفَ زُجَاجِ الغِيَابْ.

أُرِيدُ مزِيدًا مِنَ الأُغنِيَاتِ لأحْمِلَ مِلْيُونَ بَابٍ... وَبَابْ
وَأَنْصُبُهَا خَيْمَةً فِى مَهَبِّ البِلاَدِ، وَأَسْكُنَ جُمْلَةْ.

أُرِيدُ مزِيدًا مِنَ السيِّدَاتِ لأعْرِفَ آخِرَ قُبْلَةْ،
وَأَوَّلَ مَوْتٍ جَمِيلٍ عَلَى خِنْجَرٍ مِنْ نَبِيذِ السَّحَابْ.

أُرِيدُ مَزِيدًا مِنَ العُمْرِ كَىْ يَعْرِفَ القَلْبُ أَهْلَهْ،
وَكَىْ أَسْتَطِيعَ الرُّجوعَ إِلَى... سَاعَةٍ مِنْ تُرَابْ.

(٢٣) ألا تستطيعين أن تطفئ قمراً

ألاَ تَسْتَطِعِينَ أَنْ تُطْفِئِى قَمَرًا وَاحِدًا كَىْ أَنَامْ؟
أَنَامُ قَلِيلاً عَلَى رُكْبَتَيْك، فَيَصْحُو الكَلاَمْ
لَيَمْدَحَ مَوْجًا مِنَ القَمْحِ يَنْبُتُ بَيْنَ عُرُوقِ الرُّخَامْ؟

تَطِيرِينَ مِنِّى غَزَالاً يَخَافُ، وَيَرْقُصُ حَوْلِى. يَخَافُ وَيَرْقُصُ حَوْلِى
وَلاَ أَسْتَطِيعُ اللِّحَاقَ بِقَلْبٍ يَعَضُّ يَدَيْك وَيَصْرُخُ: ظَلِّى
لأَعْرِفَ مِنْ أَىِّ رِيحٍ يَهُبُّ عَلَىَّ سَحَابُ الحَمَامْ.

ألا تَسْتَطِيعِينَ أَنْ تُطْفِئِى قَمَرًا وَاحِدًا كَىْ أَرَى
غُرُورَ الغَزَالِ الأَشُورِىِّ يَطْعَنُ صَيَّادَهُ قَمَرًا
أُفَتِّشُ عَنْك فَلاَ أَهْتَدِى. أَيْنَ سُومَرُ فِىَّ.. وَأَيْنَ الشَّامْ؟

تَذَكَّرْتُ أَنِّى نَسَيْتُك. فَلْتَرْقُصِى فِى أَعَالِى الكَلاَمْ

(٢٤) خريف جديد لامرأة النار

خَرِيفٌ جَدِيدٌ لامْرَأَةِ النَّارِ: كُونِى كَمَا خَلَقَتْكِ الأسَاطِيرُ وَالشَّهَوَاتُ. وَكُونِى رَصِيفًا لِمَا يتَسَاقَطُ مِنْ وَرْدَتِى. وَرِيَاحًا لِبَحَّارَةٍ لاَ يُرِيدُونَ أَنْ يُبْحِرُوا. كَمْ أُرِيدُكِ عِنْدَ هُبوطِ الخَرِيفِ عَلَى الرُّوحِ؛ كَمْ أَتَمَنَّى بَقَائِى شَرِيدًا عَلَى قَدَمٍ مِنْ حَرِيرِ المَدَائِحِ. كُونِى نِسَاءً لِقَلْبِى، وأَسْمَاءَ عَيْنَىَّ كُونِى، ونافِذَةً لِلْحَدِيقَةِ كُونِى، وَأُمًّا لِيَأْسِى مِنَ الأرْضِ. كُونِى مَلاَئِكَتِى، أَوْ خَطِيئَةَ سَاقَيْنِ حَوْلِى، أُحِبُّكِ قَبْلَ احْتِكَاكِ دَمِى بِالعَوَاصِفِ وَالنَّحْلِ، كُونِى كَمَا كُنْتِ. كُونِى كَمَا لاَ تَكُونِينَ، مُسَّى بِأَطْرَافِ ظِلِّكِ جِنَّ الأنَاشِيدِ يَصِحُّ الكَلاَمُ عَلَى غَسَلِ الشَّهَوَاتِ. أُحِبُّكِ، أَوْ لاَ أُحِبُّكِ، لاَ أَسْتَطِيعُ الرُّجُوعَ إِلَى بَلَدِى. لاَ أُرِيدُ الرُّجُوعَ إِلَى جَسَدِى. لاَ أُرِيدُ الرُّجُوعَ إِلَى أَحَدٍ بَعْدَ هَذَا الخَرِيفِ.

(٢٥) سيأتى الشتاء الذى كان

سَيَأتِى الشّتَاءُ الَّذى كَانَ... لِلْمَرَّةِ العَاشِرَةْ
فَمَاذَا سَأفْعَلُ حِينَ يَجِىءُ الشّتَاءُ الذى كَانَ، مَاذَا سَأَفْعَلُ كَىْ لا أُمُوتَ
كَمَا مُتُّ، مَا بَيْنَ قَلْبَيْنِ، أَعْلَى مِنَ الغَيْمِ أعْلَى.. وَأَعْلَى؟
أُعِدُّ لَكِ الذّكْرَيَاتِ، وَأَفْتَحُ نَافِذَةً لِلْحَمَامِ المُصَابِ بِنِسيَانِ دِفْلَى
وَأَلْمَسُ فَرْوَ غِيَابِك.. هَلْ كان فِى وَسْعِنَا أَنْ نُحِبَّ أَقَلَّ
لِنَفْرَحَ أَكْثَر؟ هَلْ كَانَ فِى وسْعِنَا أَنْ نُحِبَّ أَقَلَّ.. أَقَلَّ؟

نُعِيدُ إِلَى الحُبّ أَشْيَاءَهُ: نُرْجِعُ الرُّوحَ لِلرُّوحِ نُرْجِعُ ظِلاً
إلَى أَهْلِهِ. نَتَبَادَل أسْمَاءَ نِسْيَانِنَا، ثُمَّ نَرجِعُ قَتْلَى.. وَأَحلَى
نُعِيدُ إِلَى الحُبّ أَشيَاءَه، زَهْرَةَ الوَقْتِ فِى جَسَدَيْنْ
وَلَكِنَّنَا لاَ نَعُودُ إِلَى نَفْسِنَا، نَفْسِهَا، مَرَّتَيْنْ!...

(٢٦) هدنة مع المغول
أمام غابة السنديان

كائنات من السنديان تُطيلُ الوقوفَ على التلّ.. قَدْ
يصعَدُ العُشْبُ من خبزنا نحوها إنْ تركنا المكانَ، وَقَدْ
يهبط اللازوردُ السماوىُّ منها إلى الظلّ فوق الحصونْ.
مَنْ سيملأ فُخَّارنا بعدنا؟ مَنْ يُغيّرُ أعداءنا عندما يعرفونْ
أننا صاعدون إلى التلّ كى نمدَحَ اللَّه..

فى كائنات من السنديانْ؟

*

كُلُّ شئ يدلُّ على عَبَث الريح، لكننا لا نَهُبُّ هباءً
رُبَّما كان هذا النهارُ أخفَّ علينا من الأمس، نحن الذين
قد أطالوا المكوثَ أمام السماء، ولم يعبدوا غير ما فَقَدوا

من عبادتهمْ. رُبَّما كانت الأرضُ أوسعَ من وَصفْها. ربما
كان هذا الطريقُ دخولاً مع الريح..

في غابة السنديانْ

*

الضحايا تَمُرُّ من الجانبيْن، تقول كلامًا أخيرًا وتسقط في
عالَمٍ واحدٍ. سوف ينتصرُ النسْرُ والسنديانُ عليها، فلا بُدَّ مِنْ
هُدْنَة للشقائق في السهل كي تُخْفيَ الميتين على الجانبين، وكيْ
نَتَبَادَلَ بَعْضَ الشتائم قبل الوصول إلي التلّ. لابُدَّ مِنْ
تَعَبٍ آدميّ يُحَوّل تلك الخيولَ إليَ..

كائنات من السنديانْ

*

الصدى واحدٌ في البراري: صدى. والسماءُ على حجر غرْبَةٌ
عَلَّقَتها الطيورُ على لا نهايات هذا الفضاء، وطارتْ..
والصدى واحدٌ في الحروب الطويلة: أُمٌّ، أبٌ، وَلَدٌ صَدَّقوا
أنَّ خلف البحيرات خيلاً تعود إليهم مُطَهَّمةً بالرجاء الأخيرْ
فأعدُّوا لأحلامهم قهوةً تمنعَ النومَ..

في شَبَح السنديانْ

*

كُلُّ حربٍ تُعَلّمنا أن نحبَّ الطبيعةَ أكثرَ: بعد الحصارْ
نَعْتَني بالزنابقِ أكثرَ، نقطف قُطْنَ الحنان من اللَوْزِ في

شهر آذارَ. نزرع غاردينيا فى الرخام، ونَسْقى نباتاتِ جيراننا
عندما يذهبو إلى صيّد غزلاننا. فمتى تَضَعُ الحربُ أوزارها
كى نفُكَّ خُصُورَ النساء على التلّ..

من عُقدة الرَّمز فى السنديانْ؟

*

ليت أعداءَنا يأخذون مقاعدنا فى الأساطير، كى يعلموا
كم نُحبُّ الرصيفَ الذى يكرهون.. ويا ليتهم يأخذونْ
ما لنا من نُحاس وبرّق.. لنأخذ منهم حرير الضجرْ
ليت أعداءنا يقرأون رسائلنا مرتين، ثلاثًا.. ليعتذروا
للفراشة عن لعبة النار..

فى غابة السنديانْ

*

كم أردنا السلامَ لسيِّدنا فى الأعالى.. لسيدنا فى الكُتبْ
كم أردنا السلامَ لغازلة الصُوف.. للطفل قرب المغارهْ
لِهُواة الحياة.. لأولاد أعدائنا فى مخابئهمْ.. للمَغُولْ
عندما يذهبون إلى ليل زوجاتهم، عندما يرهلونْ
عن براعم أزهارنا الآن.. عَنَّا،

وعن ورَق السنديانْ

*

الحروب تُعَلّمنا أن نذوق الهواء وأن نمدح الماء. كَمْ
ليلةً سوف نفرح بالحُمُّص الصلّب والكستنا فى جيوب معاطفنا؟
أَمْ سننسى مهارتنا فى امتصاص الرذاذ؟ ونسأل: هَلْ
كان فى وُسْع مَنْ ماتَ ألاَّ يموت ليبدأ سيرتَهُ من هنا؟
رُبَّما.. رُبَّما نستطيع مديح النبيذ ونرفعُ

نخبًا لأرملة السنديانْ

*

كُلُّ قَلْبٍ هنا لا يردُّ على الناى يسقط فى
شَرَك العنكبوت. تمهَّلْ لتسمع رَجْعَ الصدى
فوق خيل العَدُوّ، فإنَّ المغُول يُحبُّون خمرتنا
ويريدون أن يَرتَدوا جلد زوجاتنا فى الليالى، وأنْ
يأخذوا شعراء القبيلة أسرى، وأنْ

يقطَعوا شَجَرَ السنديانْ

*

المغُول يريدوننا أن نكون كما يبتغون لنا أن نكونْ
حفنةً من هبوب الغبار على الصين أو فارسٍ، ويريدوننا
أن نُحبَّ أغانيَهمْ كُلَّها كى يَحُلَّ السلامُ الذى يطلبونْ..
سوف نحفظ أمثالهم.. سوف نغفر أفعالَهُم عندما يذهبونْ
مَعَ هذا المساء إلى ريح أجدادهم

خلفَ أُغنيةِ السنديانْ

لمْ يجيئوا لينتصروا، فالخرافةُ ليست خرافَتُهمْ. إنهم يهبطونْ
من رحيل الخيول إلى غرب آسيا المريضِ، ولا يعرفونْ
أنَّ فى وسعنا أن نقاوم غازان ـ أرغون ألفَ سَنَةْ
بَيْدَ أن الخرافةَ ليست خرافتَهْ. سوف يدخل عمًّا قليلْ
دينَ قتلاهُ كى يتعلَّم منهم كلامَ قُرَيْش..

ومعجزةَ السنديانْ

*

الصّدَى واحدٌ فى الليالى. على قمّة الليل نُحْصى
النجومَ على صدر سيّدنا، عُمْرَ أولادنا ـ كبروا سَنَةً بعدنا ـ
غَنَمَ الأهل تحت الضباب، وأعدادَ قتلى المغول، وأعدادَنا
والصدى واحدٌ فى الليالى: سنرجع يومًا، فلابُدَّ من
شاعرٍ فارسىٍّ لهذا الحنين.

إلى لُغَةِ السنديانْ

*

الحرُوبُ تعلّمنا أن نحبَّ التفاصيل: شَكْلَ مفاتيحِ أبوابنا،
أن نُمَشّطَ حنطتنا بالرموش، ونمشى خِفَافًا على أرضنا،
أن نقدّسَ ساعاتٍ قبل الغروب على شجر الزَنْزَلَخْت..
والحروبُ تُعَلّمُنا أن نرى صورة اللّه فى كل شىء، وأنْ
نَتَحمَّل عبء الأساطير نُخْرِجَ الوحشَ.

من قصَّة السنديانْ

كم سنضحك من سُوس خُبْزِ الحروبِ ومن دُودِ ماء الحروب،
إذا ما انتصرنا نُعَلّقُ أعلامنا السودَ فوق حبال الغسيلْ
ثم نَصْنَع منها جواربَ.. أما النشيدُ، فلابُدَّ من رَفْعِهِ
فى جنازات أبطالنا الخالدين.. وأما السبايا، فلا
بُدَّ من عَتْقهنَّ، ولأبدَّ من مَطَرٍ

فوق ذاكرةِ السنديانْ

*

خَلْفَ هذا المساء نرى ما تبقَّى من الليل، عما قليلْ
يشرب القَمَرُ الحُرُّ شاىَ المُحَارب تحت الشجَرْ
قَمَرٌ واحدٌ للجميع على الخندقين لَهُمْ ولنا، هَلْ لَهُمْ
خلف تلك الجبال بيوتٌ من الطين، شاىٌ، وناىٌ، وهَلْ
عندهُمْ حَبَقٌ مثلنا يُرجع الذاهبين من الموت...

فى غابة السنديانْ؟

*

.. وأخيرًا، صعدْنا إلى التلِّ. ها نحن نرتفع الآن
فوق جذوع الحكاية.. ينبت عُشْبٌ جديد على دمنا وعلى دمهمْ
سوف نحشو بنادقنا بالرياحين، سوف نُطَوّق أعناقَ ذاك
الحمام بأوسمة العائدين.. ولكننا

لم نجد أحدًا يقبل السِلّم..لا نحن نحن ولا غيرنا غيرنا

البنَادِقُ مكسورة.. والحمامُ يطير بعيدًا بعيدًا

لم نجد أحدًا هُنا..

لم نجد أحدًا..

لم نجدغابة السنديانْ!

*

(٢٧) أحد عشر كوكبا
على آخر المشهد الأندلسي

I

في المَسَاء الأخير

على هذه الأرض

فى الْمَساءِ الأَخيرِ على هذِهِ الأَرْضِ نَقْطَعُ أيَّامَنا
عَنْ شُجَيْراتنا، ونَعُدُّ الضلُوعَ الَّتى سَوْفَ نَحْمِلُها مَعَنا
وَالضلُّوعَ الَّتى سَوْف نَتْرُكُها، ههُنا... فى الْمَساءِ الأخيرْ
لا نُوَدِّعُ شَيْئًا، ولا نَجِدُ الْوَقْتَ كَى نَنْتَهى...
كُلُّ شَىْءٍ يَظَلُّ على حالِه، فَالْمَكانُ يُبَدِّلُ أَحْلامَنا
وَيُبَدِّلُ زُوّارَه. فَجْأَةً لَمْ نَعُدْ قادِرينَ على السُّخْرِيَةِ
فالْمَكانُ مُعَدٌّ لِكَى يَسْتَضيفَ الْهَباءَ...هُنا فِى الْمَساءِ الأخيرْ

تَتَمَلّى الْجبالَ الْمحيطَةَ بِالْغَيْمِ: فَتْحٌ... وَفَتْحٌ مُضادٌّ
وَزَمانٌ قَديمٌ يُسَلِّمُ هذا الزَّمانَ الْجَديدَ مَفاتيحَ أَبْوابِنا
فَادْخلوا، أَيُّها الْفاتِحونَ، مَنازِلَنا واشْرَبوا خَمْرَنا
مِنْ مُوشَّحِنا السَّهْلِ. فاللَّيْلُ نَحْنُ إذا انْتَصَفَ اللَّيْلُ، لا
فَجْرَ يَحْمِلُهُ فارِسٌ قادِمٌ مِنْ نَواحي الأَذانِ الأَخيرِ...
شايُنا أَخْضَرٌ ساخِنٌ فَاشْرَبوهُ، وفُسْتُقُنا طازَجٌ فَكُلوه
والأَسِرَّةُ خَضْراءُ مِنْ خَشَبِ الأَرْزِ، فَاسْتَسْلِموا لِلنُّعاسْ
بَعْدَ هذا الْحِصارِ الطَّويلِ، ونَامُوا على ريشِ أَحْلامِنا
الْمَلاءاتُ جاهِزَةٌ، والْعُطورُ على الْبابِ جاهِزَةٌ، وَالمرايا كَثيرة
فَادْخُلوها لِنَخْرُجَ مِنْها تَمامًا، وَعَمّا قَليلٍ سَنَبْحَثُ عَمّا
كانَ تاريخَنا حَوْلَ تاريخِكُمْ في الْبِلادِ الْبَعيدَةِ
وَسَنَسْأَلُ أَنْفُسَنا في النِّهايَةِ: هَلْ كانَت الأَنْدَلُسْ
هَهُنا أَمْ هناكَ؟ على الأَرْضِ... أَمْ في الْقَصيدَةِ؟

II

كَيْفَ أَكْتُبُ فَوْقَ السَّحاب؟

كَيْفَ أَكْتُبُ فَوْقَ السَّحابِ وَصِيَّةَ أَهْلي؟ وَأَهْلي
يَتْرُكُونَ الزَّمانَ كَما يَتْرُكونَ مَعاطِفَهُمْ في الْبُيوتِ، وَأَهْلي
كُلَّما شَيَّدوا قَلْعَةً هَدَموها لِكَيْ يَرْفَعوا فَوْقَها
خَيْمَةً لِلْحَنينِ إِلى أَوَّلِ النَّخْلِ. أَهْلي يَخُونونَ أَهْلي

فى حُروبِ الدِّفاعِ عَنِ الْمِلْح. لكِنَّ غَرْناطَةٌ مِنْ ذَهَب
مِنْ حَرِيرِ الْكَلاَمِ الْمُطَرَّزِ باللَّوْز، مِنْ فِضَّةِ الدَّمْعِ فى
وَتَرِ الْعود. غَرْناطَةٌ لِلصُّعودِ الْكَبيرِ إلى ذاتها...
وَلَها أنْ تَكونَ كَما تَبْتَغى أنْ تَكونَ: الْحَنينَ إلى
أىِّ شَئٍ مَضى أوْ سَيَمْضى: يَحُكُّ جَناحُ سُنونوَّةٍ
نهْدَ امْرأةٍ فى السَّريرِ، فَتَصْرُخُ: غَرْناطَةٌ جَسَدى
وَيُضَيِّعُ شَخْصٌ غَزالَتَهُ فى الْبَرارى، فَيَصْرُخُ: غَرْناطَةٌ بَلَدى
وَأنا مِنْ هُناكَ، فَغَنِّى لِتَبْنى الْحَساسينُ مِنْ أَضْلُعى
دَرَجًا لِلسَّماءِ الْقَريبَةِ. غَنِّى فُروسِيَّةَ الصاعدينَ إلى حَتْفِهِمْ
قَمَرًا قَمَرًا فى زُقاقِ الْعشيقَةِ. غَنِّى طُيورَ الْحَديقَة
حَجَرًا حَجرًا. كَمْ أُحِبُّكِ أَنْتِ الَّتى قَطَّعْتِنى
وَتَرًا وَتَرًا فى الطَّريقِ إلى لَيْلِها الحارِّ، غنِّى
لا صَباحَ لِرائِحةِ الْبُنِّ بَعْدَكِ غَنِّى رَحيلى
عَنْ هَديلِ الْيَمامِ على رُكْبَتَيْكِ وَعَنْ عُشِّ روحى
فِى حُروفِ اسْمِكِ السَّهْلِ، غَرْناطَةٌ لِلْغناءِ فَغَنِّى!

III

لى خَلْفَ السَّماءِ سماء...

لِىَ خَلْفَ السَّماءِ سَماءٌ لأرْجِعَ، لِكنَّنى

لاَ أزالُ أُلَمِّعُ مَعْدِنَ هذا الْمَكانِ، وَأَحْيا
ساعَةً تُبْصِرُ الْغَيْبَ. أعْرِفُ أنَّ الزَّمانْ
لا يُحالِفُنى مَرَّتَيْنِ، وَأَعرِفُ أنّى سأَخْرُجُ مِنْ
رايَتى طائِرًا لا يَحُطُّ على شَجَرٍ فى الْحَديقَهْ
سَوْفَ أَخْرُجُ مِنْ كُلِّ جِلْدى، وَمِنْ لُغَتى
سَوْفَ يَهْبِطُ بَعْضُ الْكَلامِ عَنِ الْحُبِّ فى
شِعْرِ لوركا الَّذى سَوْفَ يَسْكُنُ غُرْفَةَ نَوْمى
وَيَرى ما رأَيْتُ مِنَ الْقَمرِ الْبَدَوِىِّ. سَأَخْرُجُ مِنْ
شَجَرِ اللَّوزِ قُطْنًا على زَبَدِ الْبَحْرِ. مَرَّ الْغَريبْ
حامِلاً سَبْعمائَةِ عامٍ مِنَ الْخَيْلِ. مَرَّ الْغَريبْ
هِهُنا، كَىْ يَمُرَّ الْغَريبُ هناكَ. سَأَخْرُجُ بَعْدَ قليل
مِنْ تَجاعيدِ وَقْتى غَريبًا عَنِ الشَّامِ وَالأَنْدَلُسْ
هذهِ الأَرْضُ لَيْسَتْ سَمائى، ولكِنَّ هذا الْمَساءَ مَسائى

وَالْمفاتيحَ لى، وَالْمآذِنَ لى، وَالْمَصابِيحَ لى، وَأَنَا
لِىَ أَيْضًا، أنا آدَمُ الجَنَّتَيْنِ، فَقَدْتُهُما مَرَّتَيْن.
فَاطْرُدونى على مَهَلٍ،
وَاقْتُلونى على عَجَلٍ،
تَحْتَ زَيْتونَتى،
مَعَ لوركا..

IV

أنا واحدٌ مِن ملوكِ النّهايَة

... وأنا واحدٌ مِنْ مُلوكِ النِّهايَة... أقْفزُ عَنْ
فَرَسى فى الشّتاءِ الأخيرِ، أنا زَفْرَةُ الْعَرَبىّ الأخيرَةْ
لاَ أُطِلُّ على الآسِ فَوْقَ سُطوحِ الْبُيوت، ولا
أتَطَلَّعُ حَوْلى لِئَلاّ يَرانى هُنا أحَدٌ كانَ يَعْرِفُنى
كانَ يَعْرِفُ أنّى صَقَلْتُ رُخامَ الْكَلاَمِ لِتَعْبُرَ امْرأتى
بُقَعَ الضَّوْءِ حافيَةً، لاَ أُطِلُّ على اللَّيْلِ كَىْ
لا أرى قَمَرًا كانَ يُشْعِلُ أسْرارَ غَرْناطَة كُلَّها
جَسَدًا جَسَدًا. لا أُطِلُّ على الظِّلّ كَىْ لا أرى
أحَدًا يَحْمِلُ اسْمى وَيَرْكضُ خَلْفى: خُذِ اسْمَكَ عَنّى
واعْطِنى فِضَّةَ الْحَوْر. لا أتلَفَّتُ خَلْفى لِئلاّ
أتَذكَّر أنّى مَرَرْتُ على الأرضِ، لاَ أرْضَ فى
هذهِ الأرْضِ مُنْذُ تَكَسَّرَ حَوْلى الزَّمانُ شَظايا شَظايا
لَمْ أكُنْ عاشِقًا كَىْ أُصَدّق أنَّ الْمِياهَ مَرايا،
مِثْلَما قُلْتُ لِلأصْدِقاءِ الْقُدامى، ولا حُبَّ يَشْفَعُ لى
مُذْ قَبِلْتُ «مُعاهَدَةَ التيه» لَمْ يَبْقَ لى حاضِرٌ
كَىْ أمُرَّ غَدًا قُرْبَ أمْسِى. سَتَرْفَعُ قَشْتالَةُ
تاجَها فوْقَ مِئْذَنَةِ اللّه. أسْمَعُ خَشْخَشَةً لِلْمَفاتيحِ فى

بابِ تاريخنا الذَّهَبىّ، وَداعًا لِتاريخنا، هَلْ أنا
مَنْ سَيُغْلِقُ باب السَّماءِ الأخيرَ؟ أنا زَفْرَةُ الْعَرَبىّ الأخيرَةْ

V

ذاتَ يوم. سأجلِسُ فَوْق الرْصيف

ذاتَ يَوْمٍ سأجْلِسُ فَوْقَ الرَّصيفِ... رَصيفِ الْغَريبَة
لَمْ أكُنْ نَرْجِسًا، بَيْدَ أنّى أُدافِعُ عَنْ صُورَتى
فى الْمَرايا. أما كُنْتَ يَوْمًا، هُنا، يا غَريبْ؟
خَمْسُمائَةِ عامٍ مَضى وَانْقَضى، وَالْقَطيعَةُ لَمْ تَكْتَمِلْ
بَيْنَنا، ههُنا، والرَّسائِلُ لَمْ تَنْقَطِعْ بَيْنَنا، وَالْحُروبْ
لَمْ تُغَيِّرْ حَدائِقَ غَرْناطَتى. ذاتَ يَوْمٍ أمُرُّ بِأقْمارِها
وَأحُكُّ بِلَيْمونَةٍ رَغْبَتى... عانِقينى لأُولَدَ ثانِيَةً
مِنْ رَوائِحِ شَمْسٍ ونَهْرٍ على كَتِفَيْكِ، وَمِنْ قَدَمَيْنْ
تَخْمُشانِ الْمَساءَ فَيَبْكى حَليبًا لِلَيْلِ الْقَصيدَةْ...
لَمْ أكُنْ عابِرًا فى كَلامِ الْمُغَنّينَ... كُنْتُ كَلامَ
الْمُغَنّينَ، صُلْحَ أثينا وَفارِسَ، شَرْقًا يُعانِقُ غَرْبًا
فى الرَّحيلِ إلى جَوْهَرٍ واحدٍ، عانِقينى لأُولَدَ ثانِيَةً
مِنْ سُيوفٍ دِمَشْقِيَّةٍ فى الدَّكاكينِ. لَمْ يَبْقَ مِنّى

غَيْرُ دِرْعي الْقَديمَةِ، سَرْجِ حِصاني الْمُذَهَّبِ. لَمْ يَبْقَ مِنّي
غَيْرُ مَخْطوطَةٍ لابْنِ رُشْدٍ، وَطَوْقِ الْحَمامَةِ، والتَّرْجَمات...
كُنْتُ أَجْلِسُ فَوْقَ الرَّصيفِ على ساحَةِ الأُقْحُوانَةِ
وأَعُدُّ الْحَمامات: واحِدَةً، اثْنَتَيْنِ، ثَلاثينَ... وَالْفَتَياتِ اللَّواتي
يتخاطَفْنَ ظِلَّ الشُّجَيْراتِ فَوْقَ الرُّخامِ، وَيَتْرُكْنَ لي
وَرَقَ الْعُمْرِ أَصْفَرَ. مَرَّ الْخَريفُ عليَّ وَلَمْ أَنْتَبِهْ
مَرَّ كُلُّ الْخَريفِ، وَتاريخُنا مرَّ فَوْقَ الرَّصيفِ...

وَلَمْ أَنْتَبِهْ !

VI

لِلحَقيقَةِ وَجْهانِ وَالثلْجُ أَسْوَدُ

لِلْحَقيقَةِ وَجهانِ، وَالثَّلْجُ أَسْوَدُ فَوْقَ مَدينَتِنا
لَمْ نَعُدْ قادِرينَ على الْيَأْسِ أَكْثَرَ مِمّا يَئِسْنا،
وَالنِّهايَةُ تَمْشي إلى السّورِ واثِقَةً مِنْ خُطاها
فَوْقَ هذا الْبَلاطِ الْمُبَلَّلِ بِالدَّمْعِ، واثِقَةً مِنْ خُطاها
مَنْ سَيُنْزِلُ أَعْلامَنا: نَحْنُ، أَمْ هُمْ؟ وَمَنْ
سَوْفَ يَتْلو عَلَيْنا «مُعاهَدَةَ اليأس»، يا مَلِكَ الاحْتِضار؟
كُلُّ شَيءٍ مُعَدٌّ لَنا سَلَفًا، مَنْ سَيَنْزَعُ أَسْماءَنا
عَنْ هُوِيَّتِنا: أَنْتَ أَمْ هُمْ؟ وَمَنْ سَوْفَ يَزْرَعُ فينا

خُطْبَةَ التّيه: «لمْ نَسْتَطِعْ أنْ نُفُكَّ الْحِصار
فَلْنُسَلِّمْ مَفَاتِيحَ فِرْدَوْسِنا لِرسولِ السّلامِ، وَنَنْجو...»
لِلْحَقيقَةِ وَجْهانِ، كانِ الشّعارُ الْمُقَدّسُ سَيْفًا لَنا
وَعَلَيْنا، فَماذا فَعَلْتَ بقَلْعَتِنا قَبْلَ هذا النَّهار؟
لَمْ تُقاتِلْ لأنَّكَ تَخْشى الشَّهادَةَ، لكِنَّ عَرْشَكَ نَعْشُكَ
فاحْمِلِ النَّعْشَ كَيْ تَحْفَظَ الْعَرْشَ، يا مَلِكَ الانْتِظار
إنَّ هذا الرحيلَ سَيَتْرُكُنا حُفْنَةً مِنْ غُبار...
مَنْ سَيَدْفِنُ أيّامَنا بَعْدَنا: أنْتَ... أمْ هُمْ؟ وَمَنْ
سَوْفَ يَرْفَعُ راياتِهِمْ فَوْقَ أسْوارِنا: أنْتَ... أمْ
فارِسٌ يائِسٌ؟ مَنْ يُعَلِّقُ أجْراسَهُمْ فَوْقَ رِحْلَتِنا
أنْتَ... أمْ حارِسٌ بائِسٌ؟ كُلُّ شَيءٍ مُعَدٌّ لَنا
فَلِماذا تُطِيلُ النهايةَ، يا مَلِكَ الاحْتِضار؟

VII

مَنْ أنا... بَعْدَ لَيْلِ الغَريبَة؟

مَن أنا بعدَ ليلِ الغريبةِ؟ أنهضُ مِنْ حُلُمي
خائِفًا مِنْ غُموضِ النَّهارِ علي مَرْمَرِ الدّارِ، مِنْ
عَتْمةِ الشَّمْسِ في الْوَرْدِ، مِنْ ماءِ نافورتي

خائِفًا مِن حَليبٍ على شَفَةِ التِّينِ، مِنْ لُغَتى
خائِفًا، مِنْ هَواءٍ يُمَشّطُ صَفْصافَةً خائفًا، خائفا
مَنْ وُضوحِ الزَّمانِ الْكَثيفِ، وَمِنْ حاضِرٍ لَمْ يَعُدْ
حاضِرًا، خائِفًا مِنْ مُروري على عالَمٍ لَمْ يَعُدْ
عالَمى. أيُّها الْيَأْسُ كُنْ رَحْمَةً. أيُّها الْمَوْتُ كُنْ
نِعْمَةً لِلْغَريبِ الَّذى يُبْصِرُ الْغَيْبَ أَوْضَحَ مِنْ
واقِعٍ لَمْ يَعُدْ واقِعا. سَوْفَ أَسْقُطُ مِنْ نَجْمَةٍ
فِى السَّماءِ إِلى خَيْمةٍ فِى الطَّريقِ إِلى... أيْنَ؟
أَيْنَ الطَّريقُ إِلى أىِّ شَىْءٍ؟ أرى الْغَيْبَ أَوْضَحَ مِنْ
شارِعٍ لَمْ يَعُدْ شارِعى. مَنْ أنا بَعْدَ لَيْلِ الْغَريبَةِ؟
كُنْتُ أَمْشى إلى الذّاتِ وَالآخَرينَ، وها أَنَذا
أَخْسَرُ الذّاتَ والآخَرينَ. حِصانى على ساحِلِ الأَطْلَسىِّ اخْتَفى
وَحِصانى على ساحِلِ الْمُتَوَسِّطِ يُغْمِدُ رُمْحَ الصَّليبىِّ فىَّ،
مَنْ أنا بَعْدَ لَيْلِ الْغَريبَةِ؟ لا أَسْتَطيعُ الرُّجوعَ إلى
إِخْوَتى قُرْبَ نَخْلَةِ بَيْتى القَديمِ، ولا أَسْتَطيعُ النُّزولَ إلى
قاعِ هاوِيَتى. أيُّها الْغَيْبُ! لا قَلْبَ لِلْحُبِّ... لا
قَلْبَ لِلْحُبِّ أَسْكُنُهُ بَعْدَ لَيْلِ الْغَريبَةِ...

VIII

كُنْ لِجيتارَتى وَتَراً أيُّها الماءُ

كُنْ لِجيتارَتى وَتَرًا أيُّها الْماءُ؛ قَدْ وَصَلَ الْفاتِحون
وَمَضى الْفاتِحونَ الْقُدامى. مِنَ الصَّعْبِ أنْ أتَذَكَّرَ وَجهى
فى الْمَرايا. فَكُنْ أنْتَ ذاكِرتَى كَىْ أرى ما فَقَدْت...
مَنْ أنا بَعْدَ هذا الرَّحيلِ الْجَماعِىّ؟ لى صَخْرَةٌ
تَحْمِلُ اسْمِىَ فَوْقَ هِضابٍ تُطِلُّ على ما مَضى
وَانْقَضى... سَبْعُمائة عامٍ تُشَيّعُنى خَلْفَ سُورِ المَدينَة...
عَبَثًا يَسْتَديرُ الزَّمانُ لأُنْقِذَ ماضِىَّ مِنْ بُرْهَةٍ
تَلِدُ الآنَ تاريخَ مَنْفاىَ فِىَّ... وَفى الآخَرين...
كُنْ لِجيتارَتى وَتَرًا أيُّها الْماءُ، قَدْ وَصَلَ الْفاتِحون
وَمَضى الْفاتِحون القُدامى جنوبًا شُعوبًا تُرَمّمُ أيّامَها
فى زُكامِ التَّحَوُّلِ: أعْرِفُ مَنْ كُنْتُ أمْسِ، فَماذا أكُونْ
فى غَدٍ تَحْتَ رَاياتِ كولومبوسَ الأطْلَسِيَّة؟ كُنْ وَتَرَا
كُنْ لِجيتارَتى وَتَرًا أيُّها الْماءُ. لا مِصْرَ فى مِصْرَ، لا
فاسَ فى فاسَ، وَالشّامُ تَنْأى. ولا صَقْرَ فى
رايَةِ الأهْلِ، لا نَهْرَ شَرْقَ النَّخيلِ الْمُحاصَرْ
بِخُيولِ الْمَغولِ السَّريعَة. فى أىّ أنْدَلُس أنْتَهى؟ هَهُنا
أمْ هُناكَ؟ سأعْرِفُ أنّى هَلَكْتُ وأنّى تَرَكْتُ هُنا

خَيْرَ ما فِيَّ: ماضِيَّ. لَمْ يَبْقَ لى غَيْرُ جيتارتى
كُنْ لِجيتارَتى وَتَرًا أَيُّها الْماءُ. قَدْ ذَهَبَ الْفاتِحون
وَأَتى الْفاتِحون...

IX

فى الرَّحيلِ الْكَبيرِ أُحِبُّك أَكْثَرَ..

فى الرَّحيلِ الْكَبيرِ أُحِبُّك أَكْثَرَ، عَمّا قَليلْ
تُقْفِلينَ الْمَدينَةَ. لا قَلْبَ لى فى يَدَيْك، ولا
دَرْبَ يَحْمِلُنى، فى الرَّحيلِ الْكَبيرِ أُحِبُّك أَكْثَرْ
لا حَليبَ لِرُمّانِ شُرْفَتِنا بَعْدَ صَدْرِك. خَفَّ النَّخيلْ
خَفَّ وَزْنُ التّلالِ، وَخَفَّتْ شَوارِعُنا فى الأصيلْ
خَفَّتِ الأَرْضُ إِذْ وَدَّعَتْ أَرْضَها. خَفَّتِ الْكَلمات
وَالْحِكاياتُ خفَّتْ على دَرَجِ اللَّيْلِ. لِكنَّ قَلْبى ثَقيلْ
فَاتْرُكيه هُنا حَوْلَ بَيتِك يَعْوى ويَبْكى الزَّمانَ الْجمَيلْ،
لَيْسَ لى وَطَنٌ غَيْرُهُ ، فى الرَّحيلِ أُحِبُّك أَكْثَرْ
أُفْرِغُ الرّوحَ مِنْ آخرِ الْكلِماتِ: أُحِبُّك أَكْثَر
فى الرَّحيلِ تَقودُ الفَراشاتُ أَرْواحَنا، فى الرَّحيلْ
نَتَذَكَّرُ زِرَّ الْقَميصِ الَّذى ضاعَ مِنّا، ونَنْسى
تاجَ أَيّامِنا، نَتَذَكَّرُ رائِحَةَ الْعَرَقِ الْمِشْمِشِيّ، ونَنْسى

رَقْصَةَ الْخَيْلِ فى لَيْلِ أعْراسِنا، فى الرَّحيلْ
نَتَساوى مَعَ الطَّيْرِ، نَرْحَمُ أيّامَنا، نَكْتَفى بِالْقَليلْ
أكْتَفى مِنْكِ بِالْخَنْجَرِ الذَّهَبِى يُرَقِّصُ قَلْبِى الْقَتيلْ
فَاقْتُليني، على مَهَلٍ كَىْ أقولَ: أُحِبُّكِ أكْثَرَ مِمّا
قُلْتُ قَبْلَ الرَّحيلِ الْكَبيرِ. أُحِبُّكِ. لا شَىءَ يوجِعنى
لا الْهَواءُ، ولا الْماءُ... لا حَبَقٌ فى صَباحِكِ، لا
زَنْبَقٌ فى مَسائِكِ يوجِعُنى بَعْدَ هذا الرَّحيلْ...

X

لا أُريدُ مِنَ الْحُبِّ غَيْرَ الْبِدايَةِ

لا أُريدُ مِنَ الْحُبِّ غَيْرَ الْبِدايَةِ، يَرْفو الْحَمامُ
فَوْقَ ساحاتِ غَرْناطَتى ثَوْبَ هذا النَّهار
فى الْجِرارِ كَثيرٌ مِنَ الْخَمْرِ لِلْعيدِ مِنْ بَعْدِنا
فى الأغانى نَوافِذُ تَكْفى وَتَكْفى لِيَنْفَجِرَ الْجُلَّنار

أَتْرُكُ الْفُلَّ فى الْمَزْهَرِيَّةِ، أَتْرُكُ قَلْبِى الصَّغيرِ
فى خِزانَةِ أُمّى، أَتْرُكُ حُلْمِى فى الْماءِ يَضْحَك
أَتْرُكُ الْفَجْرَ فى عَسَلِ التّينِ، أَتْرُكُ يَوْمى وأَمْسى

فِي الْمَمَرِّ إلى ساحَةِ الْبُرْتُقالَةِ حَيْثُ يَطيرُ الْحَمامُ
هَلْ أَنا مَنْ نَزَلْتُ إلى قَدَمَيْكِ، لِيَعْلُوَ الْكَلامُ
قَمَرًا فى حَليبِ لَياليكِ أَبْيَضَ... دُقِّى الْهَواء
كَىْ أَرى شارِعَ النّايِ أَزْرَقَ... دُقِّي الْمَساء
كَىْ أَرى كَيْفَ يَمْرَضُ بَيْنى وبَيْنَكِ هذا الرُّخامُ.

الشَّبابيكُ خالِيَةٌ مِنْ بَساتينِ شالِكِ. في زَمَنٍ
آخَرٍ كُنْتُ أعْرِفُ عَنْكِ الْكَثيرَ، وَأَقْطُفُ غارْدينيا
مِنْ أَصابِعِكِ الْعَشْرِ. في زَمَنٍ آخَرٍ كانَ لي لُؤْلُؤٌ
حَوْلَ جيدِكِ، وَاسْمٌ على خاتَمٍ شَعَّ مِنْهُ الظَّلامُ

لا أُريدُ مِنَ الْحُبِّ غَيْرَ الْبِدايَةِ، طارَ الْحَمامُ
فَوْقَ سَقْفِ السَّماءِ الأخيرَةِ، طارَ الْحَمامُ وطارْ
سَوْفَ يَبْقى كَثيرٌ مِنَ الْخَمْرِ، مِنْ بَعْدِنا، في الْجِرارْ
وَقَليلٌ مِنَ الأرْضِ يَكْفي لِكَيْ نَلْتَقي، وَيَحِلَّ السَّلامُ

XI

الكَمَنجات

الكَمَنجاتُ تَبْكي مَعَ الْغَجَرِ الذّاهِبينَ إلى الأنْدَلُسْ
الكَمَنجاتُ تَبْكي على الْعَرَبِ الْخارِجينَ مِنَ الأنْدَلُسْ

الكَمَنجاتُ تَبْكى على زَمَنٍ ضائعٍ لا يَعودْ
الكَمَنجاتُ تَبْكى على وَطَنٍ ضائعٍ قَدْ يعودْ

الكَمَنجاتُ تُحْرِقُ غَاباتِ ذاكَ الظَّلامِ الْبَعيدِ الْبَعيدْ
الكَمَنجاتُ تُدْمى الْمُدى، وَتَشُمُّ دَمى فى الْوريدْ

الكَمَنجاتُ تَبْكى مَعَ الْغَجَرِ الذَّاهِبينَ إلَى الأنْدَلُسْ
الكَمَنجاتُ تَبْكى على الْعَرَبِ الْخارِجينَ مِنَ الأنْدَلُسْ

الكَمَنجاتُ خَيْلٌ على وَتَرٍ مِنْ سَرابٍ، وَماءٍ يَئِنُّ
الكَمَنجاتُ حَقْلٌ مِنَ اللَّيْلَكِ الْمُتَوَحّشِ يَنْأى وَيَدْنو

الكَمَنجاتُ وَحْشٌ يُعَذّبُهُ ظُفُرُ إمْرأةٍ مَسَّهُ، وَابْتَعَدْ
الكَمَنجاتُ جَيْشٌ يُعَمّرُ مَقْبَرَةً مِنْ رُخامٍ وَمِنْ نَهَوَنْدْ

الكَمَنجاتُ فَوْضى قُلوبٍ تُجَنّنُها الرّيحُ فى قَدمِ الرَّاقِصَةْ
الكَمَنجاتُ أسْرابُ طَيْرٍ تَفِرُّ مِنَ الرَّايَةِ النَّاقِصَةْ
الكَمَنجاتُ شَكْوى الْحَريرِ الْمُجَعَّدِ فى لَيْلَةِ الْعاشِقَةْ
الكَمَنجاتُ صَوْتُ النَّبيذِ الْبَعيدِ على رَغْبَةٍ سابِقَةْ

الكَمَنجاتُ تَتْبَعُنى، ههُنا وَهناكَ، لِتثْأرَ منىّ
الكَمَنجاتُ تَبْحَثُ عَنّى لِتَقْتُلَنى، أيْنَما وَجَدتَنْى

الكَمَنجاتُ تَبْكى على الْعَرَبِ الْخارِجينَ مِنَ الأنْدَلُسْ
الكَمَنجاتُ تَبْكى مَعَ الْغَجَرِ الذَّاهِبِينَ إلى الأنْدَلُسْ

(٢٨) القربان

هيا.. تقدم أنت وحَدَك، أنت وحدك.
حولك الكهان ينتظرون أمر الله، فاصعد
أيها القربان نحو المذبح الحجرى، ياكبش
الفداء.. فدائنا.. واصعد قويا

•

لك حبنا، وغناؤنا المبحوح فى
الصحراء، هات الماء من غبش السراب،
وأيقظ الموتى! ففى دمك الجواب، ونحن
لم نقتلك.. لم نقتل نبيا
إلاّ لنمتحن القيامة، فامتحنا أنت
فى هذا الهباء المعدنىّ. ومت لتعرف
كم نحبك... كم نحبك! مت لنعرف

كيف يسقط قلبك الملان، فوق دمائنا
رُطبا جنيا
لك صُورةُ المعنى. فلا ترجع إلى
أعضاءِ جسمِك. واترك اسمك فى الصدى
صفة لشىء ما. وكن أيقونة للحائرين
وزينةً للساهرين، وكن شهيدًا شاهدًا
طلق المحُيا.
فبأى آلاء نكذّب؟ من يطهرنا
سواك؟ ومن يحرّرنا سواك؟ وقد
ولدت نيابة عنًّا هناك، ولدت من نور
ومن نار. وكُنّا نحن نجارين موَهوبُين فى
صنع الصليب، فخذ صليبك وارتفع
فوق الثُريا
سنقول:لم تُخطئ، ولم نُخطئ، إذا
لم يهطل المطرُ انتظرناهُ، وضحينّا بجسمك
مرة أخرى. فلا قربان غيرك، يا حبيب
الله، ياابن شقائق النعمان، كم من
مرةٍ ستعودُ حيا!
هيا، تقدم أنت وحدك، يا استعارتنا
الوحيدة فوق هاوية الفنانين. نحن الفارغين

النائمين على ظهور الخيل... نسألك الوفاء،
فكن وفيًا للسلالة والرسالة. كُن وفيًا
للأساطير الجميلة، كُن وفيا!
وبأى آلاء نكذّب؟ والكواكب فى
يديك، فكن إشارتنا الأخيرة، كُن عبارتنا
الأخيرة فى حطُام الأبجدية «لم نزل
نحيا، ولوموتى»، على دمك اتكلنا
دلنا، وأضئ لنا دمك الزكيا!
لم يعتذر أحد لجرحك .كُلنَا قلنا
لروما : «لم نكن معه». وأسلمناك للجلاّد .
فاصفح عن خيانتنا الصغيرة، يا أخانا
فى الرضاعة، لم نكن ندرى بما يجرى.
فكُن سمحًا رضيًا .
سنصدق الرؤيا ونؤمن بالزواج الفذّ
بين الروح والجسد المقّدس. كل ورد
الأرض لا يكفى لعرشك، خفّت الأرض،
استدارت، ثم طارت كالحمامة فى سمائك.
ياذبيحتنا الأنيقة، فاحترق لتضيئنا، ولتبقَ نجما قصيًا .
أعلى وأعلى، لست منا إن نزلت

وقلت: «لى جسدٌ يُعذبّنى على خشب
الصليب». فإن نطقت.. أفقت، وانكشفت
حقيقتنا. فكُن حلمًا لنحلم.. لا تكن بشرًا
ولا شجرًا. وكن لُغزًا عصيًا
كُن همزة الوصل الخفيفة بين آلهة
السماء وبيننا، قد تمطر السُحب العقيمة
من نوافذ حرفك العالى، وكن نور البشارة،
واكتب الرؤيا على باب المغارة، واهدنا
دربا سويًا
وليحتفل بك كُلٌّ ما يخضَرٌّ من
شجرٍ ومن حجر، ومن أشياء تتساها
الفراشة فوق قارعة الزمان قصيدة...
وليحتفل بك كُلٌّ من لم يمتلك ذكرى،
ولا قمرًا بهيًا
لا تتكسرا لا تنتصر، كُن بَيْنَ
بين مُعلّقًا، فإذا انكسرت كَسرتنًا. وإذا
انتصرت كسرتنا، وهدمت هيكلنا، إذن،
كن ميتا ـ حيا، وحيا ـ ميتا، ليواصل
الكُهان مهنتهم، وكُن طيفًا خفيًا

ولتبق وحدك عاليًا، لا يلمس الزمنُ
الثقيل مجالك الحيوى، فاصعد ما استطعت،
فأنت أجملنا شهيدًا، كُن بعيدا ما استطعت.
لكى نرى فى الوحى ظلُّك أرجوانىّ الخريطة
والسلام عليك يوم ولدت فى بلد السلام،
ويوم متَّ، ويوم تُبعثُ من ظلام الموت
حيا!

*

(٢٩) جداريّة

هذا هُوَ اسمُكَ/
قالتِ امرأةٌ،
وغابتْ فى المَمَرّ اللولبّى...

أرى السماءَ! هُنَاكَ فى مُتَناوَلِ الأيدى.
ويحملُنى جناحُ حمامةٍ بيضاءَ صَوْبَ
طُفُولَة أُخرى. ولم أحلُمْ بأنى
كنتُ أحلُمُ. كُلُّ شىء واقعىٌّ. كُنْتُ
أعلَمُ أننى أُلْقى بنفسى جانبًا...
وأطيرُ. سوف أكونُ ما سأصيرُ فى

الفَلَك الأخيرِ. وكُلُّ شىء أبيضُ،

البحرُ المُعَلَّقُ سقف غمامةٍ
بيضاءَ. واللَّلا شىء أبيضُ فى
سماء المُطْلَق البيضاءِ. كُنْتُ، ولم
أكُنْ. فأنا وحيدٌ فى نواحى هذه
الأبديَّة البيضاء. جئتُ قُبَيْل ميعادى
فلم يَظْهَرْ ملاكٌ واحدٌ ليقول لى:
«ماذا فعلت، هناك، فى الدنيا؟»
ولم أسمع هُتَافَ الطّيبينَ، ولا
أنينَ الخاطئينَ، أنا وحيدٌ فى البياض،
أنا وحيدٌ...

لاشىء يُوجِعُنى على باب القيامةِ.
لا الزمانُ ولا العواطفُ. لا
أُحِسُّ بخفَّةِ الأشياء أو ثِقَلِ
الهواجس. لم أجد أحدًا لأسأل:
أين «أيْنى» الآن؟ أين مدينةُ
الموتى، وأين أنا؟ فلا عَدَمٌ
هنا فى اللاهنا... فى اللا زمان،
ولا وُجُودُ

وكأننى قد متُّ قبل الآن...
أعرفُ هذه الرؤيا، وأعرفُ أننى
أمضى إلى ما لَسْتُ أعرفُ. رُبَّما
ما زلتُ حيًّا فى مكانٍ ما، وأعرفُ
ما أُريدُ...
سأصيرُ يومًا ما أُريدُ

سأصير يومًا فكرةً. لا سَيْفَ يحملُها
إلى الأرضِ اليبابِ، ولا كتابَ...
كأنَّها مَطَرٌ على جَبَلٍ تَصدَّعَ من
تَفَتُّحِ عُشْبَةٍ،
لا القُوَّةُ انتصرتْ
ولا العَدْلُ الشريدُ
سأصير يومًا ما أُريدُ

سأصير يومًا طائرًا، وأَسُلُّ من عَدَمى
وجودى، كُلَّما احتَرقَ الجناحانِ
اقتربتُ من الحَقيقةِ، وانبعثتُ من
الرمادِ، أنا حوار الحالمين، عَزَفْتُ

عن جَسَدى وعن نفسى لأكْمِلَ
رحلتى الأولى إلى المعنى، فأحْرَقَنى
وغاب. أنا الغيابُ. أنا السماوىُّ
الطريدُ.

سأصير يومًا ما أريدُ

سأصيرُ يومًا شاعرًا،
والماءُ رَهْنُ بصيرتى، لُغتى مجازٌ
للمجاز، فلا أقولُ ولا أشيرُ
إلى مكانٍ. فالمكان خطيئتى وذريعتى.
أنا من هناك. «هُنا»ىَ يقفزُ
من خُطَاىَ إلى مُخَيّلتى...
أنا من كُنْتُ أو سأكونُ
يَصْنَعُنى ويَصْرعُنى الفضاءُ اللانهائىُّ
المديدُ.

سأصير يومًا ما أُريدُ

سأصيرُ يومًا كرمةً،
فَلْيَعْتَصِرني الصيفُ منذ الآن،
وليشرَبْ نبيذي العابرون على
ثُرَيَّات المكان السُكَّريّ؛
أنا الرسالةُ والرسولُ
أنا العناوينُ الصغيرةُ والبريدُ

سأصير يومًا ما أُريدُ

هذا هُوَ اسمُكَ/
قالتِ امرأةٌ،
وغابتْ في مَمَرِّ بياضها.
هذا هُوَ اسمُكَ، فاحفظِ اسْمَكَ جَيّداً؛
لا تختلفْ مَعَهُ على حَرْفٍ
ولا تَعْبَأْ براياتِ القبائلِ،
كُنْ صديقًا لاسمك الأُفُقيّ
جَرِّبْهُ مع الأحياء والموتى
ودَرِّبْهُ على النُطْق الصحيح برفقة الغرباء
واكْتُبْهُ على إحدى صُخُور الكهف،

يا اسمي: سوف تكبرُ حين أكبرُ
سوف تحملُني وأحملُكَ
الغريبُ أخُ الغريب
سنأخُذُ الأُنثى بحرف العِلَّة المنذور للنايات
يا اسمي: أين نحن الآن؟
قل: ما الآن، ما الغَدُ؟
ما الزمانُ وما المكانُ
وما القديمُ وما الجديدُ؟

سنكون يومًا ما نريدُ

لا الرحلةُ ابتدأتْ، ولا الدربُ انتهى
لم يَبْلُغ الحكماءُ غربتَهُمْ
كما لم يَبْلُغ الغرباءُ حكمتَهمْ
ولم نعرف من الأزهار غيرَ شقائقِ النعمانِ،
فلنذهب إلى أعلى الجداريات:
أرضُ قصيدتي خضراءُ، عاليةٌ،
كلامُ اللَّه عند الفجر أرضُ قصيدتي
وأنا البعيدُ
أنا البعيدُ

فى كُلّ ريحٍ تَعْبَثُ امرأةٌ بشاعرها
ـ خُذِ الجهةَ التى أهديتنى
الجهةَ التى انكَسَرتْ،
وهاتِ أُنوثتى،
لم يَبْقَ لى إلاّ التَّأمُّلُ فى
تجاعيد البُحَيْرَة. خُذْ غدى عنّى
وهاتِ الأمس، واتركنا معًا
لا شىءَ، بعدَكَ سوف يرحَلُ
أو يَعُودُ

ـ وخُذى القصيدةَ إن أردتِ
فليس لى فيها سواكِ
خذُى «أنا»كِ. سأُكْمِلُ المنفى
بما تركَتْ يداكِ من الرسائل لليمامِ
فأيُّنا منا «أنا» لأكون آخرَها؟
ستسقطُ نجمةٌ بين الكتابة والكلامِ
وتَنْشُرُ الذكرى خواطرها: وُلِدْنا
فى زمان السيف والمزمار بين
التين والصُبَّار. كان الموتُ أبطأ.

كان أوْضح. كان هُدْنَةَ عابرين
على مَصَبّ النهر. أما الآن،
فالزرُّ الإلكترونىُّ يعمل وَحْدَهُ. لا
قاتلٌ يُصْغى إلى قتلى. ولا يتلو
وصيَّته شهيدُ

من أىّ ريح جئتِ؟
قولى ما اسمُ جُرْحِكِ أعرفِ
الطُّرُقَ التى سنضيع فيها مَرّتَيْنِ!
وكُلُّ نَبْضٍ فيك يُوجِعنى، ويُرْجِعُنى
إلى زَمَنٍ خرافىّ. ويوجعنى دمى
والملح يوجعنى... ويوجعنى الوريدُ

فى الجرّة المكسورة انتحبتْ نساءُ
الساحل السورىُّ من طول المسافةِ،
واحترقْنَ بشمس آبَ. رأيتُهنَّ على
طريق النبع قبل ولادتى. وسمعتُ
صَوْتَ الماء فى الفخّار يبكيهنّ:
عُدْنَ إلى السحابة يرجعِ الزَّمَنُ الرغيدُ

قال الصدى:
لا شيءَ يرجعُ غيرُ ماضى الأقوياء
على مِسلاَّت المدى... (ذهبيّةٌ آثارُهُمْ
ذهبيّةٌ) ورسائلِ الضعفاءِ للغَدِ،
أعْطِنا خُبْزَ الكفاف، وحاضرًا أقوى.
فليس لنا التقمُّصُ والحُلُولُ ولا الخُلُودُ
قال الصدى:
وتعبتُ من أملى العُضَال. تعبتُ
من شَرَك الجماليّات: ماذا بعد
بابَل: كُلَّما اتَّضَحَ الطريقُ إلى
السماء، وأسْفَرَ المجهولُ عن هَدَفٍ
نهائيّ تَفَشَّى النثرُ في الصلوات،
وانكسر النشيدُ

خضراءُ، أَرضُ قصيدتى خضراءُ عاليةٌ...
تُطلُّ علىَّ من بطحاء هاويتى...
غريبٌ أنتَ فى معناك. يكفى أن
تكون هناك، وحدك، كى تصيرَ
قبيلةً...

غَنَّيْتُ كى أَزِنَ المدى المهدُورَ
فى وَجَعِ الحمامةِ،
لا لأشْرَحَ ما يقولُ اللَّهُ للإنسان،
لَسْتُ أنا النبىَّ لأدَّعى وَحْيًا
وأُعْلِنَ أنَّ هاويتى صُعُودُ

وأنا الغريب بكُلّ ما أُوتيتُ من
لُغَتى. ولو أخضعتُ عاطفتى بحرف
الضاد، تخضعنى بحرف الياء عاطفتى،
وللكلمات وَهْىَ بعيدةٌ أرض تُجاورُ
كوكبًا أعلى. وللكلمات وَهْىَ قريبةٌ
منفى. ولا يكفى الكتابُ لكى أقول:
وجدتُ نفسى حاضرًا مِلْءَ الغياب.
وكُلَّما فَتَّشْتُ عن نفسى وجدتُ
الآخرين. وكُلَّما فتَّشْتُ عَنْهُمْ لم
أجد فيهم سوى نَفسى الغريبةِ،
هل أنا الفَرْدُ الحُشُودُ؟

وأنا الغريبُ. تَعِبْتُ من «درب الحليب»

إلى الحبيب. تعبتُ من صِفتى.
يَضيقُ الشَّكْلُ. يَتّسعُ الكلامُ. أفيضُ
عن حاجات مفردتى. وأَنْظُرُ نحو
نفسى فى المرايا:
هل أنا هُوَ؟
هَل أُؤدّى جَيّدًا دَوْرِى من الفصل
الأخيرِ؟
وهل قرأتُ المسرحيَّةَ قبل هذا العرض،
أم فُرِضَتْ علىَّ؟
وهل أنا هُوَ من يؤدّى الدَّوْرَ
أمْ أنَّ الضحيَّة غيَّرتْ أقوالها
لتعيش ما بعد الحداثة، بعدما
انْحَرَفَ المؤلّفَ عن سياق النصّ
وانصرَفَ المُمَثّلُ والشهودُ؟

وجلستُ خلف الباب أنظُرُ:
هل أنا هُوَ؟
هذه لُغَتى. وهذا الصوت وَخْزُ دمى
ولكن المؤلّف آخَرٌ...

أنا لستُ منى إن أتيتُ ولم أصِلْ
أنا لستُ منّى إن نطَقْتُ ولم أقُلْ
أنا مَنْ تَقُولُ له الحُروفُ الغامضاتُ:
اكتُبْ تَكُنْ؛
واقرأْ تَجِدْ؛
وإذا أردْتَ القَوْلَ فافعلْ، يَتَّحِدْ
ضدَّاكَ فى المعنى...
وباطُنكَ الشفيفُ هُوَ القصيدُ

بَحَّارَةٌ حولى، ولا ميناء
أفرغنى الهباءُ من الإشارةِ والعبارةِ،
لم أجد وقتًا لأعرف أين مَنْزِلَتى،
الهُنَيْهةَ، بين مَنْزِلَتَيْنِ. لم أسأل
سؤالى، بعد، عن غَبَش التشابُهِ
بين بابَيْنِ: الخروج أم الدخول...
ولم أجِدْ موتًا لأقْتَنِصَ الحياةَ.
ولم أجِدْ صوتًا لأصرخَ: أيُّها
الزَمَنُ السريعُ؛ خَطَفْتَنى مما تقولُ
لى الحروفُ الغامضاتُ:

ألواقعىُّ هو الخيالىُّ الأكيدُ

يا أيها الزَّمَنُ الذى لم ينتظِرْ...
لم يَنْتَظِرْ أحدًا تأخَّر عن ولادتِهِ،
دَعِ الماضى جديدًا، فَهْوَ ذكراكَ
الوحيدةُ بيننا، أيَّام كنا أصدقاءك،
لا ضحايا مركباتك. واتركِ الماضى
كما هُوَ، لا يُقَادُ ولا يَقُودُ

ورأيتَ ما يتذكَّرُ الموتى وما ينسون...
هُمْ لا يكبرون ويقرءون والوَقْتَ فى
ساعات أيديهمْ. وَهُمْ لا يشعرون
بموتنا أبدًا ولا بحياتِهِم. لا شىءَ
ممَّا كُنْتُ أو سأكونُ. تنحلُّ الضمائرُ
كُلُّها. «هو» فى «أنا» فى «أنت».
لا كُلٌّ ولا جُزءٌ. ولا حىٌّ يقول
لمّيتٍ: كُنّى!

.. وتنحلُّ العناصرُ والمشاعرُ. لا

أرى جَسَدى هُنَاكَ، ولا أُحسُّ
بعنفوان الموت، أو بحياتىَ الأُولى.
كأنّى لَسْتُ منّى. مَنْ أنا؟ أأنا
الفقيدُ أم الوليدُ؟

ألوقْتُ صِفْرٌ. لم أُفكر بالولادة
حين طار الموتُى بى نحو السديم،
فلم أكُن حَيًا ولا مَيتًا،
ولا عَدَمٌ هناك، ولا وُجُودُ
تقولُ مُمَرّضتى: أنتَ أحسَنُ حالاً
وتحقُنُنى بالُمخَدّر: كُنْ هادئًا
وجديرًا بما سوف تحلُمُ
عما قليل...

رأيتُ طبيبى الفرنسىّ
يفتح زنزانتى
ويضربنى بالعصا
يُعَاونُهُ اثنانِ من شُرْطة الضاحية

رأيتُ أبى عائدًا

من الحجّ، مُغمى عليه

مُصَابًا بضربة شمسٍ حجازيّة

يقول لرفٍّ ملائكةٍ حَوْلَهُ

أطفئونى!...

رأيتُ شبابًا مغاربةً

يلعبون الكُرَةَ

ويرموننى بالحجارة: عُدْ بالعبارةِ

واتْرُكْ لنا أُمَّنا

يا أبانا الذى أخطَأَ المقبرةْ!

رأيت «رينى شار»

يجلس مع «هيدغر»

على بُعْدِ مترين منّى،

رأيتهما يشربان النبيذَ

ولا يبحثان عن الشعر...

كان الحوارُ شُعَاعًا

وكان غدٌ عابرٌ ينتظرْ

رأيتُ رفاقى الثلاثةَ ينتحبونَ

وَهُمْ
يَخيطونَ لى كَفَنًا
بخُيوطِ الذَّهَبْ

رأيت المعرىَّ يطرد نُقَّادَهُ
من قصيدتهِ:
لستُ أعمى
لأبْصِرَ ما تبصرونْ،
فإنَّ البصيرةَ نورٌ يؤدّى
إلى عَدَمٍ.... أو جُنُونْ
رأيتُ بلادًا تعانقُنى
بأيدٍ صَبَاحيّة: كُنْ
جديرًا برائحة الخبز. كُنْ
لائقًا بزهور الرصيفْ
فما زال تَنُّورُ أُمّكَ مشتعلاً،
والتحيَّةُ ساخنةٌ كالرغيفْ!

خضراءُ، أرضُ قصيدتى خضراءُ. نهرٌ واحدٌ يكفى لأهمس للفراشة: آهِ، يا أُختى، ونَهْرٌ واحدٌ يكفى لإغواءِ الأساطير القديمة

بالبقاء على جناح الصَّقْر، وَهْوَ يُبَدِّلُ الرايات والقممَ البعيدةَ، حيث أنشأت الجيوشُ ممالكَ النسيان لى. لا شَعْبَ أصْغَرُ من قصيدته. ولكنَّ السلاح يُوَسِّعُ الكلمات للموتى وللأحياء فيها، والحُرُوفَ تُلَمِّعُ السيفَ المُعَلَّقَ فى حزام الفجر، والصحراء تنقُصُ بالأغانى، أو تزيدُ

لا عُمْرَ يكفى كى أشُدَّ نهايتى لبدايتى.

أَخَذَ الرُّعَاةُ حكايتى وتَوَغَّلُوا فى العشب فوق مفاتن الأنقاض، وانتصروا على النسيان بالأبواق والسَّجَع المشاع، وأورثونى بُحَّةَ الذكرى على حَجَرِ الوداع، ولم يعودوا...

رَعَوِيَّةٌ أَيَّامنا رَعَوِيَّةٌ بين القبيلة والمدينة، لم أجد لَيْلاً خُصُوصِيًا لهودجِكِ المُكَلَّلِ بالسراب، وقلت لى:

ما حاجتى لاسمى بدونكَ؟ نادنى، فأنا خلقتُكَ عندما سَمَّيْتَنى، وقَتَلْتَنى حين امتلكتَ الاسمَ... كيف قتلتَنى؟ وأنا غريبةُ كُلّ هذا الليل، أَدْخِلْنى

إلى غابات شهوتك، احتضنّى واعْتَصِرْنى، واسفُك العَسَلَ الزفافىَّ النقىَّ على قفير النحل. بعثرنى بما ملكتْ يداك من الرياح ولُمَّنى.

فالليل يُسْلِمُ روحَهُ لك يا غريبُ، ولن ترانى نجمةٌ إلاّ وتعرف أنَّ

عائلتى ستقتلنى بماء اللازوردِ، فهاتِى ليكونَ لى ـ وأنا أحطّمُ جَرّتى بيدىَّ ـ حاضِرِىَ السعيدُ

ـ هل قُلْتَ لى شيئًا يُغيّر لى سبيلى؟
ـ لم أقُلْ. كانت حياتى خارجى
أنا مَنْ يُحَدّثُ نفسَهُ:
وَقَعَتْ مُعَلَّقتى الأخيرةُ عن نخيلى
وأنا المُسَافِرُ داخلى
وأنا المُحَاصَرُ بالثنائيات،
لكنَّ الحياة جديرةٌ بغموضها
وبطائرِ الدورىِّ...
لم أُولَدْ لأعرفَ أننى سأموتُ، بل لأُحبَّ محتوياتِ ظل الله
يأخُذُنى الجمالُ إلى الجميلِ
وأُحبُّ حُبَّك، هكذا متحررًا من ذاتِهِ وصفاتِهِ
وأنا بديلى...

أنا من يُحَدِّثُ نَفْسَهُ:
مِنْ أصغرِ الأشياءِ تُولَدُ أكبرُ الأفكار
والإيقاعُ لا يأتى من الكلمات،
بل مِنْ وحدة الجَسَدَيْنِ

فیَ لیلٍ طویلٍ...

أنا مَنْ یحدّثُ نَفْسَهُ
ویروّضُ الذکری... أأنتِ أنا؟
وثالثُنا یرفرف بیننا «لا تَنْسَیَانی دائمًا».
یا مَوْتَنَا! خُذْنَا إلیكَ علی طریقتنا، فقد نتعلَّمُ الإشراق...
لا شَمْسٌ ولا قَمَرٌ علیَّ
ترکتُ ظلِّی عالقًا بغصون عَوْسَجَةٍ
فخفَّ بِیَ المکانُ
وطار بی روحی الشَّرُودُ

أنا مَنْ یحدِّثُ نفسَهُ:
یا بنتُ: ما فَعَلَتْ بكِ الأشواقُ؟
إن الریح تصقُلُنا وتحملنا کرائحة الخریفِ،
نضجتِ یا امرأتی علی عُکَّازَتیَّ،
بوسعك الآن الذهابُ علی «طریق دمشق»
واثقةً من الرؤیا. ملاَكٌ حارسٌ
وحمامتان ترفرفان علی بقیَّة عمرنا، والأرضُ عیدٌ...
الأرضُ عیدُ الخاسرین (ونحن منهُمْ)

نحن من أَثَرِ النشيد الملحميِّ على المكان، كريشةِ النَّسْرِ العجوز خيامُنا في الريحُ كُنَّا طَّيبين وزاهدين بلا تعاليم المسيح. ولم نكُنْ أقوى من الأعشابِ إلاّ في ختام الصَّيْف،

أنتِ حقيقتي، وأنا سؤالُكِ

لم نَرِثْ شيئًا سوى اسْمَينَا

وأنتِ حديقتي، وأنا ظلالُكِ

عند مفترق النشيد الملحميِّ...

ولم نشارك في تدابير الإلهات اللواتي كُنَّ يبدأن النشيد بسحرهنَّ وكيدهنَّ. وكُنَّ يَحمِلْنَ المكانَ على قُرُون الوعل من زَمَنِ المكان إلى زمان آخرٍ...

كنا طبيعيّين لو كانت نجومُ سمائنا أعلى قليلاً من حجارة بئرنا، والأنبياءُ أقلَّ إلحاحًا، فلم يسمع مدائحنَا الجُنُودُ...

خضراءُ، أرضُ قصيدتي خضراءُ

يحملُها الغنائيّون من زَمَنٍ إلى زَمَنٍ كما هِيَ في خُصُوبتها.

ولي منها: تأمُّلُ نَرْجسٍ في ماء صُورتِهِ

ولي منها وُضُوحُ الظلِّ في المترادفات

ودِقَّةُ المعنى...

ولي منها: التَّشَابُهُ في كلام الأنبياءِ

على سُطُوح الليلِ

لى منها: حمارُ الحكمةِ المنسىُّ فوق التلّ
بسخَرٍ من خُرافتهاوواقعها...
ولى منها: احتقانُ الرمز بالأضدادِ
لا التجسيدُ يُرجعهُا من الذكرى
ولا التجريدُ يرفَعُها إلى الإشراقة الكبرى
ولى منها: «أنا» الأُخرى
تُدَوّنُ فى مُفَكّرَة الغنائّيين يوميَّاتها:
«إن كان هذا الحُلْمُ لا يكفى
فلى سَهَرٌ بطولىٌّ على بوابة المنفى...»
ولى منها: صَدَى لُغتى على الجدران
يكشِطُ مِلْحَهَا البحرىَّ
حين يخوننى قَلْبٌ لَدُودٌ...

أعلى من الأغوار كانت حكمتى
إذ قلتُ للشيطان: لا. لا تَمْتَحِنّى!
لا تَضَعْنى فى الثُّنَائيَّات، واتركنى
كما أنا زاهدًا برواية العهد القديم
وصاعدًانحو السماء، هُنَاكَ مملكتى
خذِ التاريخَ، يا ابنَ أبى، خُذِ

التاريخَ... واصنَعْ بالغرائز ما تريدُ

ولِىَ السكينةُ. حَبَّةُ القمح الصغيرةُ
سوف تكفينا، أنا وأخى العَدُوّ،
فساعتى لم تَأْتِ بَعْدُ ولم يَحِنْ
وقتُ الحصاد. علىَّ أن ألِجَ الغيابِ
وأن أُصدّقَ أوَّلاً قلبى وأتبعَهُ إلى
قانا الجليل. وساعتى لم تأتِ بَعْدُ.
لعَلَّ شيئًا فىَّ ينبُذُنى. لعلّى واحدٌ
غيرى. فلم تنضج كُرومُ التين حول
ملابس الفتيات بَعْدُ. ولم تَلِدْنى
ريشةُ العنقاء. لا أحَدٌ هنالك
فى انتظارى. جئتُ قبل، وجئتُ
بعد، فلم أجد أحدًا يُصَدّق ما
أرى. أنا مَنْ رأى. وأنا البعيدُ
أنا البعيدُ

مَنْ أنتَ، يا أنا؟ فى الطريقِ
اثنانِ نَحْنُ، وفى القيامة واحدٌ

خُذْنى إلى ضوء التلاشى كى أرى
صَيْرُورتى فى صُورتى الأُخرى. فَمَنْ
سأكون بعدَكَ، يا أنا؟ جَسَدى
ورائى أم أمامَكَ؟ مَنْ أنا يا
أنت؟ كَوِّنّى كما كَوَّنْتُكَ، ادْهَنّى
بزيت اللوز، كَلِّلنى بتاج الأرز.
واحملنى من الوادى إلى أبديّةٍ
بيضاءَ. عَلِّمنى الحياةَ على طريقتِكَ،
اختَبِرْنى ذَرَّةً فى العالم العُلْوِيِّ.
ساعِدْنى على ضَجَر الخلود، وكُنْ
رحيمًا حين تجرحنى وتبزغ من
شرايينى الورودُ...

لم تأت ساعتُنا. فلا رُسُلٌ يَقِيسُونَ الزمأن بقبضة العشب الأخير. هل استدار؟ ولا ملائكةٌ يزورون المكانَ ليترك الشعراءُ ماضِيَهُمْ على الشَّفَق الجميل، ويفتحوا غَدَهُمْ بأيديهمْ.
فغَنّى يا إلهتىَ الأثيرةَ، يا عناةُ،
قصيدتى الأُولى عن التكوين ثانيةً...
فقد يجدُ الرُّوَاةُ شهادةَ الميلاد

للصفصاف فى حَجَرٍ خريفىّ. وقد يجدُ
الرعاةُ البئرَ فى أعماق أُغنية. وقد
تأتى الحياة فجاءةً للعازفين عن
المعانى من جناح فراشةٍ علِقَتْ
بقافية، فغنِّى يا إلهتَى الأثيرةَ
يا عناةُ، أنا الطريدةُ والسهامُ،
أنا الكلامُ. أنا المؤبِّنُ والمؤذِّنُ
والشهيدُ

ما قلتُ للطَّللِ: الوداع. فلم أكُنْ
ما كُنْتُ إلاّ مَرَّةً. ما كُنْتُ إلاّ
مرَّةً تكفى لأعرف كيف ينكسرُ الزمانُ
كخيمة البدوىِّ فى ريح الشمال،
وكيف يَنْفَطِرُ المكانُ ويرتدى الماضى
نُثَارَ المعبد المهجور. يُشبهُنى كثيرًا
كُلُّ ما حولى، ولم أُشْبِهْ هنا
شيئًا. كأنَّ الأرض ضَيّقَةٌ على
المرضى الغنائِّيين، أحفادِ الشياطين
المساكين المجانين الذين إذا رأوا

حُلْمًا جميالً لَقَنُّوا الببغَاءَ شِعْرَ
الحب، وانفتَحتْ أمامَهُمُ الحُدُودُ...
وأُريدُ أن أحيا...
فلى عَمَلٌ على ظهر السفينة. لا
لأُنقذَ طائرًا من جوعنا أو من
دُوَارِ البحر، بل لأُشاهِدَ الطُوفانَ
عن كَثَبٍ: وماذا بعد؟ ماذا
يفعَلُ الناجونَ بالأرض العتيقة؟
هل يعيدونَ الحكايةَ؟ ما البدايةُ؟
ما النهايةُ؟ لم يعد أحَدٌ من
الموتى ليخبرنا الحقيقة.../
أيُّها الموتُ انتظرنى خارج الأرض،
انتظرنى فى بلادِكَ، ريثما أُنهى
حديثًا عابرًا مَعَ ما تبقّى من حياتى
قرب خيمتكَ، انتظِرْنى ريثما أُنهى
قراءةَ طَرْفَةَ بنِ العَبْد. يُغْرينى
الوجوديّون باستنزاف كُلَّ هُنَيْهَة
حريةً، وعدالةً، ونبيذ آلهةٍ.../
فيا مَوْتُ؛ انتظرنى ريثما أُنهى

تدابيرَ الجنازة في الربيع الهَشّ،
حيث وُلدتُ، حيث سأمنع الخطباء
من تكرار ما قالوا عن البلد الحزين
وعن صُمُود التينِ والزيتونِ في وجه
الزمانِ وجيشِهِ. سأقول: صُبُّوني
بحرف النون، حيث تَعُبُّ روحي
سورةُ الرحمن في القرآن. وامشوا
صامتين معي على خطوات أجدادي
ووقع الناي في أزلي. ولا
تَضَعُوا على قبري البنفسجَ، فَهْوَ
زَهْرُ المُحْبَطينَ يُذَكِّرُ الموتى بموت
الحُبِّ قبل أوانِهِ. وَضَعُوا على
التابوتِ سَبْعَ سنابلٍ خضراءَ إنْ
وُجِدَتْ، وبَعْضَ شقائقِ النُّعْمانِ إنْ
وُجِدتْ. وإلاَّ، فاتركوا وَرْدَ
الكنائس للكنائس والعرائس/
أيُّها الموت انتظر! حتى أُعِدَّ
حقيبتي: فرشاةَ أسناني، وصابوني
وماكنة الحلاقة، والكولونيا، والثيابَ.

هل المناخُ هُنَاكَ مُعْتَدِلٌ؟ وهل
تتبدَّلُ الأحوالُ فى الأبدية البيضاء،
أم تبقى كما هِى فى الخريف وفى
الشتاء؟ وهل كتابٌ واحدٌ يكفى
لِتَسلَيتى مع اللاَّ وقتِ، أمْ أحتاجُ
مكتبةً؟ وما لُغَةُ الحديث هناك،
دارجةٌ لكُلّ الناس أم عربيّةٌ
فُصْحى/
.. ويا مَوْتُ انتظرْ، يا موتُ،
حتى أستعيدَ صفاءَ ذِهْنى فى الربيع
وصحّتى، لتكون صيَّادًا شريفًا لا
يَصيدُ الظَّبْىَ قرب النبع. فلتكنِ العلاقةُ
بيننا وُدّيَّةً وصريحةً: لَك أنتَ
ما لَكَ من حياتى حين أملأها..
ولى منك التأمُّلُ فى الكواكب:
لم يَمُتْ أحَدٌ تمامًا. تلك أرواحٌ
تغّير شَكْلَها ومُقامَها/
يا موت! يا ظلّى الذى
سيقودُنى، يا ثالثَ الاثنين، يا

لَوْنَ الترددُّ فى الزُّمُرُّد والزَّبَرْجَدِ،
يا دَمَ الطاووس، يا قَنَّاصَ قلب
الذئب، يا مَرَضَ الخيال! اجلسْ
على الكرسىّ! ضَعْ أدواتِ صيدكَ
تحت نافذتى. وعلّقْ فوق باب البيت
سلسلَةَ المفاتيح الثقيلةَ؛ لا تُحَدّقْ
يا قوىُّ إلى شراييني لترصُدَ نُقْطَةَ
الضعف الأخيرةَ. أنت أقوى من
نظام الطبّ. أقوى من جهاز
تَنَفُّسى. أقوى من العَسَلِ القوىّ،
ولَسْتَ محتاجًا ـ لتقتلنى ـ إلى مَرَضى.
فكُنْ أسْمَى من الحشرات. كُنْ مَنْ
أنتَ، شفَّافًا بريدًا واضحًا للغيب.
كن كالحُبّ عاصفةً على شجرٍ، ولا
تجلس على العتبات كالشحَّاذ أو جابى
الضرائبِ. لا تكن شُرطىّ سَيْرٍ فى
الشوارعِ. كن قويًّا، ناصعَ الفولاذ، واخلَعْ عنك أقنعةَ الثعالَب. كُنْ
فروسيًا، بهيًّا، كامل الضربات. قُلْ
ما شئْتَ: «من معنى إلى معنى

أجِيءُ. هِيَ الحياةُ سُيُولَةٌ، وأنا
أكثّفُها، أُعرِّفُها بسُلْطانى وميزانى»../
ويامَوْتُ انتظرْ، واجلس على
الكرسىّ. خُذْ كأسَ النبيذ، ولا
تفاوضْنى، فمثْلكَ لا يُفاوِضُ أىَّ
إنسانٍ، ومثلى لا يعارضُ خادمَ
الغيب. استرح... فَلَرُبَّما أُنْهِكْتَ هذا
اليوم من حرب النجوم. فمن أنا
لتزورنى؟ أَلَدَيْكَ وَقْتٌ لاختبار
قصيدتى. لا. ليس هذا الشأنُ
شأنَكَ. أنت مسئولٌ عن الطينىّ فى
البشرىِّ، لا عن فِعْلِهِ أو قَوْلِهِ/
هَزَمَتْكَ يا موتُ الفنونُ جميعُها.
هزمتك يا موتُ الأغانى فى بلاد
الرافدين. مِسَلَّةُ المصرىّ، مقبرةُ الفراعنةِ،
النقوشُ على حجارة معبدٍ هَزَمَتْكَ
وانتصرتْ، وأفلَتَ من كمائنك
الخُلُودُ....
فاصنع بنا، واصنع بنفسك ما تريدُ

وأنَا أُريدُ، أريدُ أن أحيا...
فلى عَمَلٌ على جغرافيا البركان.
من أيام لوط إلى قيامة هيروشيما
واليبابُ هو اليبابُ. كأننى أحيا
هنا أبدًا، وبى شَبَقٌ إلى ما لست
أعرف. قد يكونُ «الآن» أبعَدَ.
قد يكونُ الأمس أقربَ. والغَدُ الماضى.
ولكنى أشدُّ «الآن» من يَدِهِ ليعبُرَ
قربىَ التاريخُ، لا الزَّمنُ المُدَوَّرُ،
مثل فوضى الماعز الجبلىّ. هل
أنجو غدًا من سرعة الوقت الإلكترونىّ،
أم أنجو غدًا من بُطْءِ قافلتى
على الصحراء؟ لى عَمَلٌ لآخرتى
كأنى لن أعيش غدًا. ولى عَمَلٌ ليومٍ
حاضرٍ أبدًا. لذا أُصغى، على مَهَلٍ
على مَهَلٍ، لصوت النمل فى قلبى:
أعينونى على جَلَدى. وأسمع صَرْخَةَ
الحَجَر الأسيرةَ: حَرِّروا جسدى. وأُبصرُ

فى الكمنجة هجرةَ الأشواق من بَلَدٍ
تُرَابىّ إلى بَلَدٍ سماوىّ. وأقبضُ فى
يد الأُنثى على أبَدِى الأليفِ: خُلِقْتُ
ثم عَشِقْتُ، ثم زهقت، ثم أفقتُ
فى عُشْبٍ على قبرى يدلُّ علىَّ من
حينٍ إلى حينٍ: فما نَفْعُ الربيع
السمح إن لم يُؤْنِسِ الموتى ويُكْمِلْ
بعدهُمْ فَرَحَ الحياةِ ونَضْرَةَ النسيان؟
تلك طريقةٌ فى فكِّ لغز الشعرِ،
شعرى العاطفىّ على الأقلِّ، وما
المنامُ سوى طريقتنا الوحيدة فى الكلام/
وأيُّها الموتُ التَبِسْ واجلسْ
على بلَّوْرِ أيامى، كأنَّكَ واحدٌ من
أصدقائى الدائمين، كأنَّكَ المنفىُّ بين
الكائنات. ووحدك المنفىُّ. لا تحيا
حياتَكَ. ما حياتُكَ غير موتى. لا
تعيش ولا تموت. وتخطف الأطفالَ
من عَطَشِ الحليب إلى الحليب. ولم
تكن طفلاً تهزُّ له الحساسِينُ السريرَ،

ولم يداعِبْكَ الملائكةُ الصغارُ ولا
قُرونُ الأيّلِ الساهي، كما فَعَلَتْ لنا
نحن الضيوفَ على الفراشة. وحدك
المنفيُّ، يا مسكين، لا امرأةٌ تَضُمُّك
بين نهديها، ولا امرأةٌ تقاسِمُك
الحنين إلى اقتصاد الليل باللفظ الإباحيّ
المرادف لاختلاط الأرض فينا بالسماءِ.
ولم تَلِدْ وَلَدًا يجيئك ضارعًا: أبتي،
أُحبُّكَ. وحدك المنفيُّ، يا مَلِكَ
الملوك، ولا مديح لصولجانكَ. لا
صُقُورَ على حصانك. لا لآلئَ حول
تاجك. أيُّها العاري من الرايات
والبُوق المُقَدَّسِ! كيف تمشي هكذا
من دون حُرَّاسٍ وجَوْقَةِ منشدين،
كَمِشْيَةِ اللصّ الجبان. وأنتَ مَنْ
أنتَ، المُعَظَّمُ، عاهلُ الموتى، القويُّ،
وقائدُ الجيش الأشوريّ العنيدُ
فاصنع بنا، واصنع بنفسك ما تريدُ
وأنا أُريدُ، أُريد أن أحيا، وأن

أنساك... أن أنسى علاقتنا الطويلة
لا لشيءٍ، بل لأقرأ ما تُدَوِّنُهُ
السماواتُ البعيدةُ من رسائلَ. كُلَّما
أعددتُ نفسى لانتظار قدومِكَ
ازددتَ ابتعادًا. كلما قلتُ: ابتعدْ
عنى لأكمل دَوْرَةَ الجَسَدَيْنَ، فى جَسَدٍ
يفيضُ، ظهرتَ ما بينى وبينى
ساخرًا: «لاتَنْسَ مَوْعِدَنا...»
- متى؟ - فى ذِرْوَةِ النسيان.
حين تُصَدِّقُ الدنيا وتعبُدُ خاشعًا
خَشَبَ الهياكل والرسومَ على جدار الكهف،
حيث تقول: «آثارى أنا وأنا ابنُ نفسىَ»..أين موعدُنا؟
أتأذن لى بأن أختار مقهىً عند
باب البحر؟ - لا.... لا تَقْتَرِبْ
يا ابنَ الخطيئةِ، يا ابن آدمَ من
حدود اللَّه! لم تُولَدْ لتسأل، بل
لتعمل... - كُن صديقًا طَيبًا يا
موت! كُنْ معنىً ثقافيًا لأُدرك
كُنْهَ حكمتِكَ الخبيئةِ! رُبَّما أسرَعْتَ

فى تعليم قابيلَ الرماية. رُبَّما
أبطأتَ فى تدريب أيُّوبٍ على
الصبر الطويل. وربما أَسْرَجْتَ لى
فَرَسًا لتقتُلَنى على فَرَسى. كأنى
عندما أتذكَّرُ النسيانَ تُنقِذُ حاضرى
لُغَتى. كأنى حاضرٌ أبدًا. كأنى
طائر أَبدًا. كأنى مُنْذُ عرفتُكَ
أدمنتْ لُغَتى هَشَاشَتَها على عرباتك
البيضاءِ، أعلى من غيوم النوم.
أعلى عندما يتحرَّرُ الإحساس من عبء
العناصر كُلِّها. فأنا وأنتَ على طريق
اللّه صوفيَّانِ محكومان بالرؤيا ولا يَرَيَان/
عُدْ يا مَوْتُ وحدَكَ سالمًا،
فأنا طليق ههنا فى لا هنا
أو لا هناك. وَعُدْ إلى منفاك
وحدك. وَعُدْ إلى أدوات صيدك،
وانتظرنى عند باب البحر. هَيِّئْ لى
الأرضِ المريضة. لا تكن فظًّا غليظ
القلب! لن آتى لأسخر منك، أو

أمشى على ماء البُحَيْرَة فى شمال
الروح. لكنّى ـ وقد أغويتَنى ـ أهملتُ
خاتمةَ القصيدةِ: لم أزفَّ إلى أبى
أُمّى على فَرَسى. تركتُ الباب مفتوحًا
لأندلُسِ الغنائِّيين، واخترتُ الوقوفُ
على سياج اللوز والرُّمَّان، أنفُضُ
عن عباءة جدّىَ العالى خُيُوطَ
العنكبوت. وكان جَيْشٌ أجنبىٌّ يعبر
الطُّرُقَ القديمةَ ذاتها، ويَقِيسُ أبعادَ
الزمان بآلة الحرب القديمة ذاتها.../

يا موت، هل هذا هو التاريخُ،
صِنْوُكَ أو عَدُوُّك، صاعدًا ما بين
هاويتين؟ قد تبنى الحمامة عُشَّها
وتبيضُ فى خُوَذ الحديد. وربما ينمو
نباتُ الشّيحِ فى عَجَلاتِ مَرْكَبَةٍ مُحَطَّمة.
فماذا يفعل التاريخُ، صنوُكَ أو عَدُوُّكَ،
بالطبيعة عندما تتزوَّجُ الأرضَ السماءُ
وتذرفُ المَطَرَ المُقدَّسَ؟/

أيها الموت، انتظرنى عند باب
البحر فى مقهى الرومانسيّين. لم
أرجعِ وقد طاشَتْ سهامُكَ مَرَّةً
إلاّ لأُودّعَ داخلى فى خارجى،
وأُوزّعَ القمح الذى امتلأتْ به رُوحى
على الشحرور حطَّ على يدىَّ وكاهلى،
وأُودّعَ الأرضَ التى تمتصُّنى ملحًا، وتنثرنى
حشيشًا للحصان وللغزالة. فانتظرنى
ريثما أُنهى زيارتى القصيرة للمكان وللزمان،
ولا تُصَدّقْنى أعودُ ولا أعودُ
وأقول: شكرًا للحياة؛
ولم أكن حَيًا ولا مَيّتًا
ووحدك، كنتَ وحدك، يا وحيدُ؛
تقولُ مُمَرّضتى: كُنْتَ تهذى
كثيرًا، وتصرخُ: يا قلبُ؛
يا قَلْبُ؛ خُذْنى
إلى دَوْرَة الماءِ.../
ما قيمةُ الروح إن كان جسمى

مريضًا، ولا يستطيعُ القيامَ
بواجبه الأولىِّ؟
فيا قلبُ، يا قلب أرجعْ خُطَاىَ
إلىَّ، لأمشى إلى دورة الماء
وحدى!

نسيتُ ذراعىَّ، ساقىَّ، والركبتين
وتُفَّاحةَ الجاذبيَّةْ
نسيتُ وظيفةَ قلبى
وبستانَ حوَّاءَ فى أوَّل الأبديَّةْ
نسيتُ وظيفةَ عضوى الصغير
نسيتُ التنفُّسَ من رئتىّ.
نسيتُ الكلام
أخاف على لغتى
فاتركوا كُلَّ شىءٍ على حالِهِ
وأعيدوا الحياة إلى لُغَتى!..

تقول مُمَرِّضتى: كُنْتَ تهذى
كثيرًا، وتصرخ بى قائلاً:

لا أُريدُ الرجوعَ إلى أحَدِ
لا أريدُ الرجوعُ إلى بلدِ
بعد هذا الغياب الطويل...
أُريدُ الرجوعَ فَقَطْ
إلى لغتى فى أقاصى الهديل

تقولُ مُمَرّضتى:
كُنْتَ تهذى طويلاً، وتسألنى:
هل الموتُ ما تفعلين بى الآنَ
أم هُوَ مَوْتُ اللُّغَةِ؟
خضراءُ، أرضُ قصيدتى خضراءُ، عاليةٌ...
على مَهَلٍ أُدوّنُها، على مَهَلٍ، على
وزن النوارس فى كتاب الماء. أكتُبُها
وأُورثُها لمنْ يتساءلون: لمنْ نُغنّى
حين تنتشرُ المُلُوحَةُ فى الندى؟...
خضراءُ، أكتُبُها على نَثْرِ السنابل فى
كتاب الحقلِ، قَوَّسَها امتلاءٌ شاحبٌ
فيها وفىَّ. كُلَّما صادَقْتُ أو
آخَيْتُ سُنْبُلَةً تَعَلَّمتَ البقاءَ من

الفَنَاء وضدّه: «أنا حَبّةُ القمح
التى ماتت لكى تَخْضَرَّ ثانيةً. وفى
موتى حياةٌ ما...»
كأنى لا كأنّى
لم يمت أَحَدٌ هناك نيابةً عنى.
فماذا يحفظُ الموتى من الكلمات غيرَ
الشُّكْرِ: «إنَّ اللّه يرحَمُنا»...
ويُؤْنِسُنى تذكُّرُ ما نَسِيتُ مِنَ
البلاغة: «لم أَلِدْ وَلَدًا ليحمل مَوْتَ
والِدِهِ»...
وآثَرْتُ الزواجَ الحُرَّ بين المُفْرَدات...
سَتَعْثُرُ الأُنثى على الذَّكَر المُلائِمِ
فى جُنُوح الشعر نحو النثر...
سوف تشبُّ أعضائى على جُمَّيزةٍ،
ويصُبُّ قلبى ماءَهُ الأرضىَّ فى
أَحَدِ الكواكب... مَنْ أنا فى الموت
بعدى؟ مَنْ أنا فى الموت قبلى
قال طيفٌ هامشىٌّ: «كان أوزيريسَ
مثْلَكَ، كان مثلى. وابنُ مَرْيَمَ

كان مثلَكَ، كان مثلى. بَيْدَ أنَّ
الجُرْحَ فى الوقت المناسب يوجِعُ
العَدَمَ المريضَ، ويَرْفَعُ الموتَ المؤقَّتَ
فكرةً...».
من أين تأتى الشاعريَّةُ؟ من
ذكاء القلب، أَمْ من فِطْرة الإحساس
بالمجهول؟ أَمْ من وردةٍ حمراءَ
فى الصحراء؟ لا الشخصىُّ شخصىٌّ
ولا الكونىُّ كونىٌّ...

كأنى لا كأنى.../
كلما أصغيتُ للقلب امتلأتُ
بما يقول الغَيْبُ، وارتفعتْ بِىَ
الأشجارُ. من حُلْم إلى حُلْمٍ
أَطيرُ وليس لى هَدَفٌ أخيرٌ.
كُنْتُ أُولَدُ منذ آلاف السنين
الشاعريَّة فى ظلامٍ أبيض الكتّان
لم أعرف تمامًا مَنْ أنا فينا ومن
حُلْمى. أنا حُلْمى

كأنى لا كأنى...
لم تَكُنْ لُغتى تُودّعُ نَبْرها الرعوىَّ
إلاّ فى الرحيل إلى الشمال. كلانُا
هَدَأتْ. وماعِزنُا توشَّح بالضباب على
التلال. وشجَّ سَهْمٌ طائش وَجْهَ
اليقين. تعبتُ من لغتى تقول ولا
تقولُ على ظهور الخيل ماذا يصنعُ
الماضى بأيَّامِ امرئ القيس المُوَزَّعِ
بين قافيةٍ وقَيْصَرَ.../
كُلَّما يَمَّمْتُ وجهى شَطْرَ آلهتى،
هنالك، فى بلاد الأرجوان أضاءنى
قَمَرٌ تُطَوّقُهُ عناةُ، عناةُ سيِّدةُ
الكِنايةِ فى الحكايةِ. لم تكن تبكى على
أحَدٍ، ولكنْ من مَفَاتِنِها بَكَتْ:
هَلْ كُلُّ هذا السحرِ لى وحدى
أما من شاعرٍ عندى
يُقاسِمُنى فَرَاغَ التَّخْتِ فى مجدى؟
ويقطفُ من سياج أُنوثتى
ما فاض من وردى؟

أما من شاعر يُغْوى

حليبَ الليل فى نهدى؟

أنا الأولى

أنا الأُخرى

وحدّى زاد عن حدّى

وبعدى تركُضُ الغِزلانُ فى الكلمات

لا قبلى... ولا بعدى/

سأحلُمُ، لا لأُصلِحَ مركباتِ الريحِ

أو عَطَبًا أصابَ الروحَ

فالأسطورة اتَّخَذَتْ مكانَتَها/ المكيدةَ

فى سياق الواقعىّ. وليس فى وُسْعِ القصيدة

أن تُغَيِّرَ ماضيًا يمضى ولا يمضى

ولا أن تُوقِفَ الزلزالَ

لكنى سأحلُمُ،

رُبَّما اتسَعَتْ بلادٌ لى، كما أنا

واحدًا من أهل هذا البحر،

كفَّ عن السؤال الصعب: «مَنْ أنا؟..

ههنا؟ أأنا ابنُ أُمى؟»

لا تساوِرُنى الشكوكُ ولا يحاصرنى
الرعاةُ أو الملوكُ. وحاضرى كغدى معى.
ومعى مُفَكِّرتى الصغيرةُ: كُلَّما حَكَّ
السحابةَ طائرٌ دَوَّنتُ: فَكَّ الحُلْمُ
أجنحتى. أنا أيضًا أطيرُ. فَكُلُّ
حىّ طائرٌ. وأنا أنا، لا شىءَ
آخَرَ/
واحدٌ من أهل هذا السهل
فى عيد الشعير أزورُ أطلالى
البهيَّة مثل وَشْم فى الهُويَّة.
لا تبدِّدُها الرياحُ ولا تُؤَبِّدُها.../
وفى عيد الكروم أَعُبُّ كأسًا
من نبيذ الباعة المتجوِّلينَ... خفيفةٌ
روحى، وجسمى مُثْقَلٌ بالذكريات وبالمكان/
وفى الربيع، أكونُ خاطرةً لسائحةٍ
ستكتُبُ فى بطاقات البريد: «على
يسار المسرح المهجور سَوْسَنَةٌ وشَخْصٌ
غامضٌ. وعلى اليمين مدينةٌ عصريَّةٌ»/

وأنا أنا، لا شئَ آخَرَ...

لَسْتُ من أتباع روما الساهرينَ
على دروب الملح. لكنِّى أسَدِّدُ نِسْبَةً
مئويَّةً من ملح خبزى مُرْغَمًا، وأقول
للتاريخ: زَيِّنْ شاحناتِكَ بالعبيد وبالملوك الصاغرينَ، ومُرَّ
... لا أحَدٌ يقول
الآن: لا.

وأنا أنا، لا شىءَ آخر
واحدٌ من أهل هذا الليل. أحلُمُ
بالصعود على حصانى فَوْقَ، فَوْقَ...
لأتبع اليُنْبُوعَ خلف التلِّ
فاصمُدْ يا حصانى. لم نَعُدْ فى الريح مُخْتَلفَيْنِ

...

أنتَ فُتُوَّتى وأنا خيالُكَ. فانتصِبْ
ألفًا، وصُكَّ البرقَ. حُكَّ بحافر
الشهوات أوعيةَ الصَّدَى. واصعَدْ،
تَجَدَّدْ، وانتصبْ ألفًا، توتَّرْ يا
حصانى وانتصبْ ألفًا، ولا تسقُطْ
عن السفح الأخير كرايةٍ مهجورةٍ فى

الأبجديَّة. لم نَعُدْ فى الريح مُخْتَلِفَيْنِ،
أنت تَعلّتى وأنا مجازُك خارج الركب
المُرَوَّضِ كالمصائرِ. فاندفعْ واحفُرْ زمانى
فى مكانى يا حصانى. فالمكانُ هُوَ
الطريق، ولا طريقَ على الطريق سواكَ
تنتعلُ الرياح. أضِىءُ نُجومًا فى السراب؛
أضِىءُ غيومًا فى الغياب، وكُنْ أخى
ودليلَ برقى يا حصانى. لا تَمُتْ
قبلى ولا بعدى عَلى السفح الأخير
ولا معى. حَدِّقْ إلى سيَّارة الإسعافِ
والموتى... لعلّى لم أزل حيّا/

سأحلُمُ، لا لأُصلّحَ أىَّ معنىً خارجى.
بل كى أُرمّمَ داخلى المهجورَ من أثر
الجفاف العاطفىِّ. حفظتُ قلبى كُلَّهُ
عن ظهر قلبٍ: لم يَعُدْ مُتَطفِّلاً
ومُدَلّلاً. تكْفيه حَبَّةُ «أسبرين» لكى
يلينَ ويستكينَ. كأنَّهُ جارى الغريبُ
ولستُ طَوْعَ هوائِه ونسائِه. فالقلب

يَصْدَأُ كالحديدِ، فلا يئنُّ ولا يَحِنُّ
ولا يُجَنُّ بأوَّلِ المطرِ الإباحيِّ الحنين،
ولا يرنُّ كعشبِ آبَ من الجفافِ.
كأنَّ قلبي زاهدٌ، أو زائدٌ
عني كحرف «الكاف» في التشبيه.
حين يجفُّ ماءُ القلب تزدادُ الجمالياتُ
تجريدًا، وتدَّثرُ العواطف بالمعاطفِ،
والبكارةُ بالمهارةِ/

كُلَّما يَمَّمْتُ وجهي شَطْرَ أُولى
الأغنيات رأيتُ آثارَ القطاة على
الكلام. ولم أكن ولدًا سعيدًا
كي أقول، الأمس أجملُ دائمًا.
لكنَّ للذكرى يَدَيْنِ خفيفتين تُهَيِّجانِ
الأرضَ بالحُمَّى. وللذكرى روائحُ زهرةٍ
ليليَّةٍ تبكي وتُوقظُ في دَمِ المنفيِّ
حاجَتَهُ إلى الإنشاد: «كُوني
مُرْتَقَى شَجَني أَجِدْ زمني»... ولستُ
بحاجةٍ إلاّ لِخَفْقَةِ نَوْرَسٍ لأتابعَ

السُّفُنَ القديمة. كم من الوقت
انقضى منذ اكتشفنا التوأمين: الوقتَ
والموتَ الطبيعيَّ المُرَادِفَ للحياة؟
ولم نزل نحيا كأنَّ الموتَ يُخطئنا
فنحن القادرين على التذكُّر قادرون
على التحُّرر، سائرون على خُطى
جلجامشَ الخضراءِ من زَمنٍ إلى زَمَنٍ.../
هباءٌ كاملُ التكوينِ...
يكسرُنى الغيابُ كجرَّةِ الماءِ الصغيرة.
نام أنكيدو ولم ينهض. جناحى نام
مُلْتَفّاً بحَفْنَةِ ريشهِ الطينىِّ، آلهتى
جمادُ الريح فى أرض الخيال. ذِراعِىَ
اليُمْنى عصا خشبيَّةٌ. والقَلْبُ مهجورٌ
كبئرٍ جفَّ فيها الماءُ، فاتَّسَعَ الصدى
الوحشىُّ: أنكيدو! خيالى لم يَعُدْ
يكفى لأُكملَ رحلتى. لابُدَّ لى من
قُوَّةٍ ليكون حُلْمى واقعيًا. هاتِ
أسْلِحتى أُلِّمَعْها بِملح الدمع. هات
الدمعَ، أنكيدوا، ليبكى المَيْتُ فينا

الحيَّ. ما أنا؟ مَنْ ينامُ الآن
أنكيدو؟ أنا أم أنت؟ آلهتي
كقبض الريح. فانهَضْ بي بكامل
طيشك البشريِّ، واحلُمْ بالمساواةِ
القليلةِ بين آلهة السماء وبيننا. نحن
الذين نُعَمِّرُ الأرضَ الجميلةَ بين
دجلةَ والفراتِ ونحفَظُ الأسماءَ. كيف
مَلَلْتَني، يا صاحبي، وخَذَلْتَني، ما نَفْعُ حكمتنا بدون
فُتُوّةٍ... ما نفعُ حكمتنا؟ على باب المتاهِ خذلتني،
يا صاحبي، فقتلَتني، وعليَّ وحدي
أن أرى، وحدي، مصائرنا. ووحدي
أحملُ الدنيا على كتفيَّ ثورًا هائجًا.
وحدي أُفتّشُ شاردَ الخطوات عن
أبديتي. لابُدَّ لي من حَلِّ هذا
اللُّغزِ، أنكيدو، سأحملُ عنكَ
عُمْرَكَ ما استطعتُ وما استطاعت
قُوَّتي وإرادتي أن تحملاكَ. فمن
أنا وحدي؟ هَبَاءٌ كاملُ التكوين
من حولي. ولكني سأُسْنِدُ ظلَّكِ:

العارى على شجر النخيل. فأين ظلُّكَ؟
أين ظلُّكَ بعدما انكسرَتْ جُذُوعُك؟
قِمَّةٌ
الإنسان
هاويةٌ...
ظلمتُكَ حينما قاومتُ فيكَ الوَحْشَ،
بامرأةٍ سَقَتْكَ حليبَها، فأنِستَ...
واستسلمتَ للبشرىِّ. أنكيدوا، ترفَّقْ
بى وعُدْ من حيث مُتَّ، لعلَّنا
نجدُ الجوابَ، فمن أنا وحدى؟
حياةُ الفرد ناقصةٌ، وينقُصُنى
السؤالُ، فمن سأسألُ عن عبور
النهر؟ فانهَضْ يا شقيقَ المِلح
واحملنى. وأنتَ تنامُ هل تدرى
بأنك نائمٌ؟ فانهض... كفى نومًا؟
تحرَّكْ قبل أن يتكاثَرَ الحكماءُ حولى
كالثعالب: (كُلُّ شىءٍ باطلٌ، فاغنَمْ
حياتَكَ مثلما هِىَ برهةٌ حُبْلَى بسائلها،
دَمِ العشْبِ المُقَطَّرِ عِشْ ليومك لا

ـحلمك. كلُّ شيءٍ زائلٌ. فاحذَرْ
غداً وعشِ الحياةَ الآن فى امرأةٍ
تحبُّكَ. عِشْ لجسمِكَ لا لِوَهْمِكَ.
وانتظرْ
ولداً سيحمل عنك رُوحَكَ
فالخلودُ هُوَ التَّناسُلُ فى الوجود.
وكُلُّ شيءٍ باطلٌ أو زائل، أو
زائل أو باطلُ)
مَنْ أنا؟
أنشيدُ الأناشيد
أم حِكْمَةُ الجامعة؟
وكلانا أنا...
وأنا شاعرٌ
ومَلِكْ
وحكيمٌ على حافّة البئرِ
لا غيمةٌ فى يدى
ولا أحَدَ عَشَرَ كوكبًا
على معبدى
ضاق بى جَسَدى

ضاق بى أبدى

وغدى

جالسٌ مثل تاج الغبار

على مقعدى

باطلٌ، باطلُ الأباطيل... باطلْ

كُلُّ شىءٍ على البسيطة زائلْ

الرياحُ شماليَّةٌ

والرياحُ جنوبيَّةٌ

تُشْرِقُ الشمسُ من ذاتها

تَغْرُبُ الشمسُ فى ذاتها

لا جديدَ، إذًا

والزَمَنْ.

كان أمسِ،

سُدىً فى سُدَى.

الهياكلُ عاليةٌ

والسنابلُ عالية

والسماءُ إذا انخفضت مَطَرتْ

والبلادُ إذا ما ارتفعت أقفرت

كُلُّ شيءٍ إذا زاد عن حَدِهِ

صار يومًا إلى ضدِهِ.

والحياةُ على الأرض ظلٌّ

لما لا نرى...

باطلٌ، باطلُ الأباطيل.. باطلٌ

كلُّ شيءٍ على البسيطة زائلٌ

١٤٠٠ مركبة

و١٢,٠٠٠ فرس

تحمل اسمى المُذَهَّبَ من

زَمَنٍ نحو آخر...

عشتُ كما لم يَعِشْ شاعرٌ

مَلكًا وحكيمًا...

هَرِمْتُ، سَئِمْتُ من المجدِ

لا شيءَ ينقصنى

ألهذا إذًا

كلما ازداد علمى

تعاظَمَ هَمّى؟

فما أُورشليمُ وما العَرشُ؟

لا شيءَ يبقى على حالهِ
للولادة وَقْتٌ
وللموت وَقْتٌ
وللصمت وَقْتٌ
وللنُّطق وَقْتٌ
وللحرب وَقْتٌ
وللصُّلح وَقْتٌ
وللوقتِ وَقْتٌ
ولا شيءَ يبقى على حالهِ...
كُلُّ نَهْرٍ سيشربُهُ البحرُ
والبحرُ ليس بملآنَ،
لا شيءَ يبقى على حالهِ
كُلُّ حيّ يسيرُ إلى الموت
والموتُ ليس بملآنَ،
لا شيءَ يبقى سوى اسمي المُذَهَّبِ
بعدي:
«سُلَيمانُ كانَ»...
فماذا سيفعل موتى بأسمائهم
هل يُضيءُ الذَّهَبُ
ظلمتي الشاسعةَ

أم نشيدُ الأناشيد
والجامعةُ؟

باطلٌ، باطلُ الأباطيل... باطلٌ
كُلُّ شيءٍ على البسيطة زائلٌ/
مثلما سار المسيحُ على البُحَيْرَةِ،
سرتُ في رؤيايَ. لكنّي نزلتُ عن
الصليب لأنني أخشى العُلُوَّ، ولا
أُبَشِّرُ بالقيامةِ. لم أغيِّرْ غَيْرَ
إيقاعي لأسمَعَ صوتَ قلبي واضحًا.
للملحميّين النُّسُورُ ولي أنا: طوقُ
الحمامةِ، نجمةٌ مهجورةٌ فوق السطوح،
وشارعٌ مُتَعرِّجٌ يُفْضي إلى ميناءِ
عكا - ليس أكثرَ أو أقلَّ -
أُريد أن أُلقي تحيَّات الصباح عليَّ
حيث تركتُني ولدًا سعيدًا (لم
أكَنْ ولدًا سَعيدَ الحظِّ يومئذٍ،
ولكنَّ المسافةَ، مثلَ حدَّادينَ ممتازينَ،
تصنَعُ من حديدٍ تافهٍ قمرًا)

ـ أتعرفنى؟
سألتُ الظلَّ قرب السورِ،
فانتبهت فتاةٌ ترتدى نارًا،
وقالت: هل تُكَلّمنى؟
فقلتُ: أُكلّمُ الشَّبَحَ القرينَ
فتمتمتْ مجنونُ ليلى آخرٌ يتفقّدُ
الأطلالَ،
وانصرفتْ إلى حانوتها فى آخر السُّوق
القديمة...
ههنا كُنَّا . وكانت نَخْلَتانِ تحمِّلان .
البحرَ بعضَ رسائلِ الشعراءِ...
لم نكبر كثيرًا يا أنا . فالمنظُر
البحرىُّ، والسُّورُ المُدَافِعُ عن خسارتنا،
ورائحةُ البَخور تقول: ما زلنا هنا،
حتى لو انفصلَ الزمانُ عن المكانِ.
لعلَّنا لم نفترق أبدًا
ـ أتعرفنى؟
بكى الوَلَدُ الذى ضيَّعتُهُ:
« لم نفترق. لكننا لن نلتقى أبدًا»...

وأَغْلَقَ موجتين صغيرتين على ذراعيه،
وحلَّق عاليًا...
فسألتُ: مَنْ منَّا المُهَاجِرُ؟/
قلتُ للسّجَّان عند الشاطئ الغربيّ:
- هل أنت ابنُ سجّانى القديمِ؟
- نعم؛
- فأين أبوك؟
قال: أبى توفّىَ من سنين.
أُصيبَ بالإحباط من سَأم الحراسة.
ثم أَوْرَثَنى مُهِمَّتَهُ ومهنته، وأوصانى
بأن أحمى المدينةَ من نشيدكَ...
قُلْتُ: مُنذُ متى تراقبنى وتسجنُ
فىَّ نفسَك؟
قال: منذ كتبتَ أُولى أُغنياتك
قلت: لم تَكُ قد وِلُدْتَ
فقال: لى زَمَنٌ ولى أزليَّةٌ،
وأُريد أن أحيا على إيقاعِ أمريكا
وحائطِ أُورشليمَ
فقلتُ: كنْ مَنْ أنتَ. لكنى ذهبتُ.

ومَنْ تراه الآن ليس أنا، أنا شَبَحى
فقال: كفى! ألستَ أُسمَ الصدى
الحجرىِّ؟ لم تذهَبْ لم تَرْجِعْ إذًا.
مازلتَ داخلَ هذه الزنزانة الصفراءِ.
فاتركنى وشأنى!
قلتُ: هل مازلتُ موجودًا
هنا؟ أأنا طليقٌ أو سجينٌ دون
أن أدرى. وهذا البحرُ خلف السور بحرى؟
قال لى: أنتَ السجينُ، سجينُ
نفسِكَ والحنينِ. ومَنْ تراهُ الآن
ليس أنا. أنا شَبَحى
فقلتُ مُحَدِّثًا نفسى: أنا حىٌّ.
وقلتُ: إذا التقى شَبَحانِ
فى الصحراء، هل يتقاسمانِ الرملَ،
أم يتنافسان على احتكار الليل؟/

كانت ساعَةُ الميناءِ تعمَلُ وحدها.
لم يكترثْ أحَدٌ، بليل الوقت، صَيَّادو
ثمار البحر يرمون الشباك ويجدلون
الموجَ. والعُشَّاقُ فى الـ«ديسكو».

وكان الحالمون يُرَبِّتون القُبَّراتِ النائماتِ

ويحلمون...

وقلتُ: إن متُّ انتبهتُ..

لدىَّ ما يكفى من الماضى

وينقُصنُى غَدٌ...

سأسيرُ فى الدرب القديم على

خُطَاىَ على هواءِ البحر. لا

امرأةٌ ترانى تحت شرفتها. ولم

أملِك من الذكرى سوى ما ينفَعُ

السَّفَرَ الطويلَ. وكان فى الأيام

ما يكفى من الغد. كُنْتُ أصْغَرَ

من فراشاتى ومن غَمَّازتين:

خُذى النُّعَاسَ وخبِّئينى فى

الرواية والمساء العاطفى/

وَخبِّئينى تحت إحدى النخلتين/

وعلِّمينى الشّعْرَ/ قد أتعلَّمُ

التجوال فى أنحاء «هومير»/ قد

أُضيفُ إلى الحكاية وَصْفَ

عكا/ أقدمِ المدنِ الجميلةِ؛

أجملِ المدن القديمة/ علبَةٌ
حَجَرِيَّةٌ يتحرَّكُ الأحياءُ والأمواتُ
فى صلصالها كخليَّة النحل السجين
ويُضْرِبُونَ عن الزهور ويسألون
البحر عن باب الطوارئ كُلَّما
اشتدَّ الحصارُ/ وعلّمنى الشّعْرَ/
قد تحتاجُ بنتُ، ما إلى أغنية
لبعيدها: «خُذْنى ولو قَسْرًا
إليكَ، وضَعْ منامى فى
يَدَيْكَ». ويذهبان إلى الصدى
مُتَعانِقَيْنِ/ كأنَّنى زوَّجتُ ظبيًا
شاردًا لغزالةٍ/ وفتحتُ أبوابَ
الكنيسة للحمام.../ وعَلّمنى
الشّعْر/ مَنْ غزلتْ قميصَ
الصوف وانتظرتْ أمام الباب
أوْلَى بالحديث عن المدى، وبخَيْبَةِ
الأمَلِ: المُحاربُ لم يَعُدْ أو
لن يعود، فلستَ أنتَ مَن
انتظرتُ.../

ومثلما سار المسيحُ على البحيرة...
سرتُ في رؤيايَ. لكنّي نزلتُ عن
الصليب لأنني أخشى العُلُوّ ولا
أُبشّرُ بالقيامة. لم أُغيّر إيقاعي
لأسمع صوتَ قلبي واضحًا...
للملحميّينَ النُّسُورُ ولي أنا طَوْقُ
الحمامة، نَجْمَةٌ مهجورةٌ فوق السطوح،
وشارعٌ يُفضي إلى الميناء.../
هذا البحرُ لي
هذا الهواءُ الرَّطْبُ لي
هذا الرصيفُ وما عَلَيْهِ
من خُطَايَ وسائلي المنويّ... لي
ومحطَّةُ الباصِ القديمةُ لي. ولي
شَبَحي وصاحبُهُ. وآنيةُ النحاس
وآيةُ الكرسيّ، والمفتاحُ لي
والبابُ والحُرَّاسُ والأجراسُ لي
لِيَ حَذْوَةُ الفَرَسِ التي
طارت عن الأسوار... لي

ما كان لى. وقصاصةُ الوَرَقِ التى
انتُزِعَتْ من الإنجيل لى
والمِلْحُ من أثر الدموع على
جدار البيت لى...
واسمى، وإن أخطأتُ لَفْظَ اسمى
بخمسة أحْرُف أُفُقيّة التكوين لى:
ميمُ/ المُتَيَّمُ والمُيتَّمُ والمتمِّمُ ما مضى
حاءُ/ الحديقةُ والحبيبةُ، حيرتانِ وحسرتان
ميمُ/ المُغامِرُ والمُعَدُّ المُستَعِدُّ لموته
الموعود منفيًا، مريض المُشْتَهَى
واو/ الوداعُ، الوردةُ الوسطى،
ولاءٌ للولادة أينما وُجِدَتْ، ووَعْدُ الوالدين
دال/ الدليلُ، الدربُ، دمعةُ
دارةٍ دَرَسَتْ، ودورىّ يُدَلِّلُنى ويُدْمينى/
وهذا الاسمُ لى...
ولأصدقائى، أينما كانوا، ولى
جَسَدى المُؤَقَّتُ، حاضرًا أم غائبًا...
مِتْرانِ من هذا التراب سيكفيان الآن...
لى مِتْرٌ و٧٥ سنتمترًا...
والباقى لِزَهْرٍ فوْضَرِىّ اللونِ،
يشربنى على مَهَلٍ، ولى

ما كان لى: أمسى، وما سيكون لى
غَدىَ البعيدُ، وعودة الروح الشريد
كأنَّ شيئًا لم يَكُنْ
وكأنَّ شيئًا لم يكن
جرحٌ طفيف فى ذراع الحاضر العَبَثىّ...
والتاريخُ يسخر من ضحاياهُ
ومن أبطاله...
يُلْقى عليهمْ نظرةً ويمرُّ...
هذا البحرُ لى
هذا الهواءُ الرَّطْبُ لى
واسمى -
وإن أخطأتُ لفظ اسمى على التابوت -
لى.
أما أنا - وقد امتلأتُ
بكُلّ أسباب الرحيل -
فلستُ لى.
أنا لَستُ لى
أنا لَستُ لى...

*

الفهرس

منافذ بيع

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم

١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق

مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة - ت : ٢٥٧٧٥٣٦٧

مكتبة مركز الكتاب الدولى

٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو

١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف

٣٦ ش شريف - القاهرة

ت : ٢٣٩٣٩٦١١٢

مكتبة عرابى

٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة

ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين

مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة

ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة ساقية

عبد المنعم الصاوى

الزمالك - نهاية ش ٢٦ يوليو

من أبو الفدا - القاهرة

مكتبة المبتديان

١٣ش المبتديان - السيدة زينب

أمام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ١٥ مايو

مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز

ت : ٢٥٥٠٦٨٨٨

مكتبة الجيزة

١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة

ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة

بجوار كلية الإعلام - بالحرم الجامعى -

الجيزة

مكتبة رادوبيس

ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة

مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون

ش جمال الدين الأفغاني من شارع

محطة المساحة - الهرم

مبنى أكاديمية الفنون - الجيزة

ت : ٣٥٨٥٠٢٩١

مكتبة الإسكندرية

٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية

ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية

التمليك - المرحلة الخامسة - عمارة ٦

مدخل (أ) - الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس

مبنى الملحق الإدارى - بكلية الزراعة -

الجامعة الجديدة - الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨

مكتبة بورفؤاد

بجوار مدخل الجامعة

ناصية ش ١١، ١٤ - بورسعيد

مكتبة أسوان

السوق السياحى - أسوان

ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط

٦٠ ش الجمهورية - أسيوط

ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا

١٦ ش بن خصيب - المنيا

ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)

مبنى كلية الآداب - جامعة المنيا - المنيا

مكتبة طنطا

ميدان الساعة - عمارة سينما أمير - طنطا

ت : ٠٤٠/٢٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى

ميدان محطة السكة الحديد

عمارة الضرائب سابقًا

مكتبة دمنهور

ش عبدالسلام الشاذلى - دمنهور

مكتبة المنصورة

٥ ش الثورة - المنصورة

ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونيا

جامعة منوف

سجل

أنا عربى

سلبتُ كروم أجدادى

و أرضاً كنتُ أفلحها

أنا و جميع أولادى

و لم تترك لنا .. و لكل أحفادي

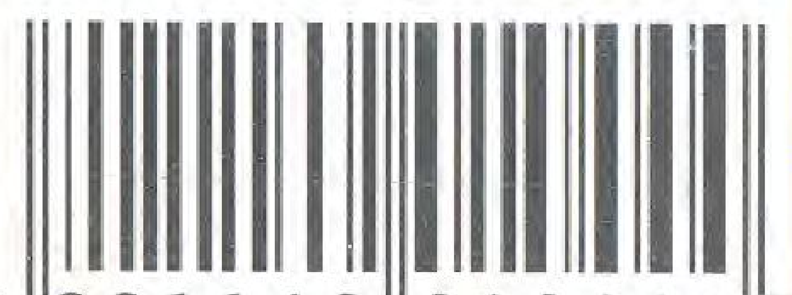
سوى هذى الصخور ..

فهل ستأخذُها

حكومتكم ... كما قيلا ؟!



الهيئة المصرية العا...
٤ جنيهات


ISBN# 9789774206243
6 221149 010444